

المؤلفات الأساسية في التحليل النفسي

بإشراف الدكتور مصطفى زيور

سايجموند فرويد

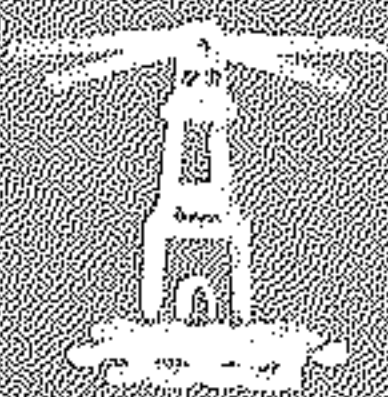
ناضله

حياتي والتحليل النفسي

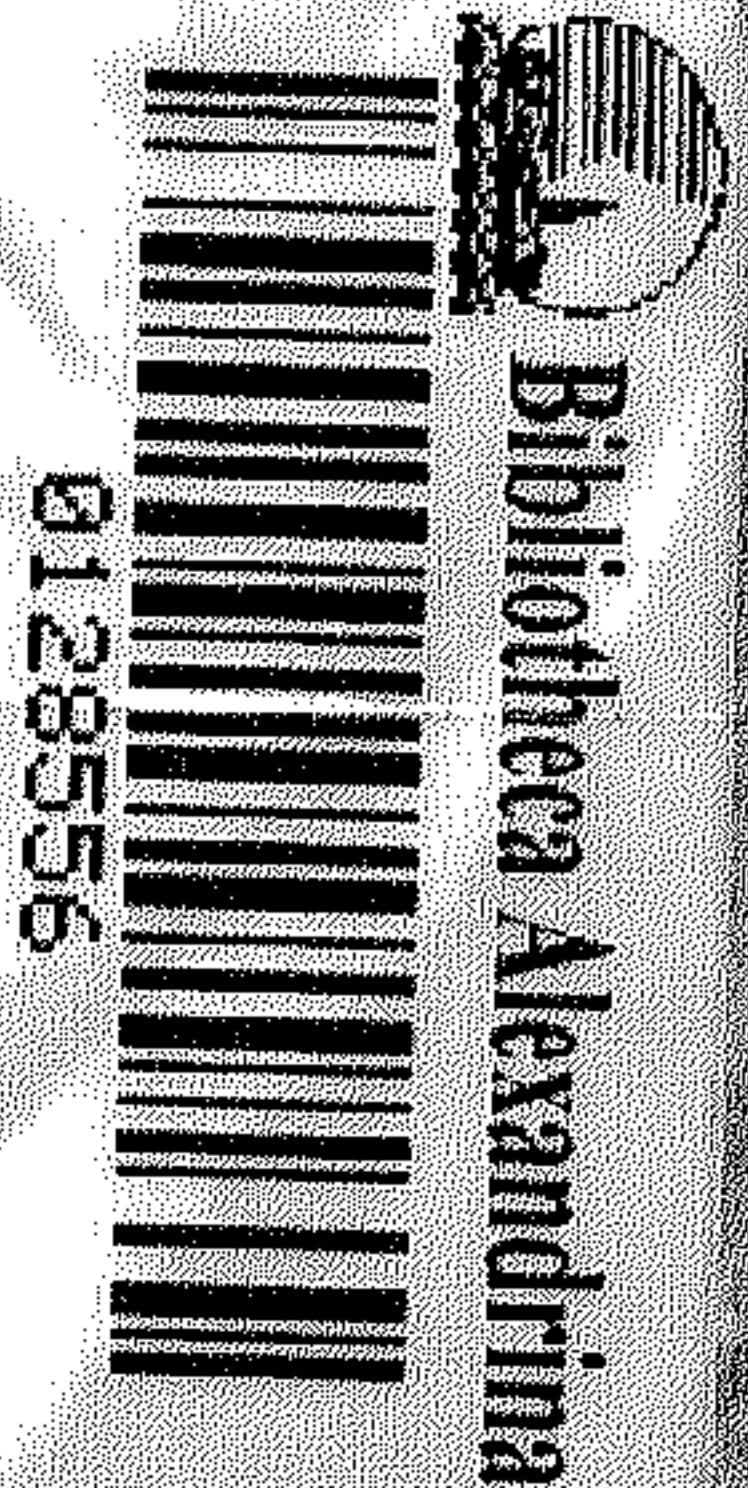
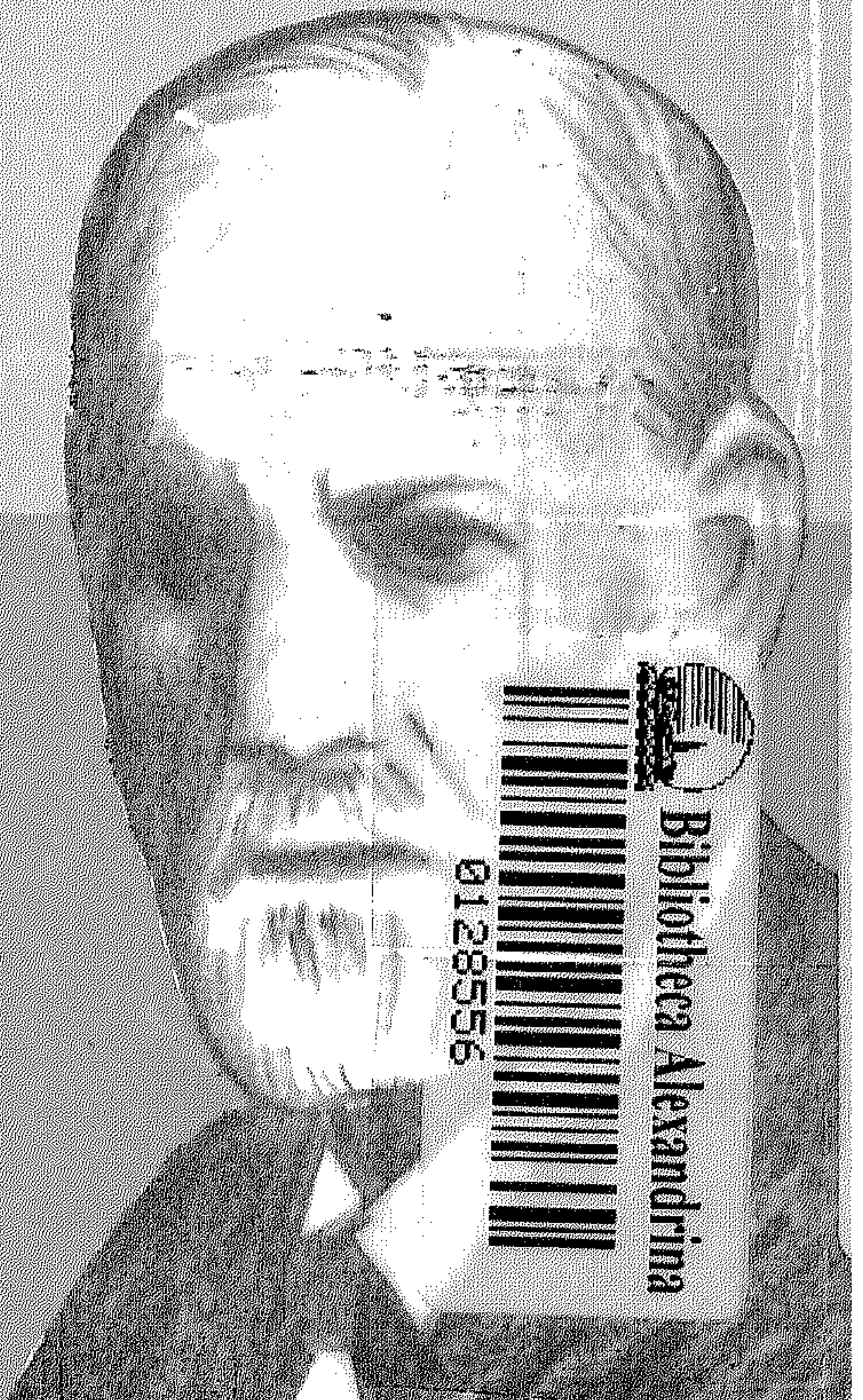
ترجمة

مصطفى زيور

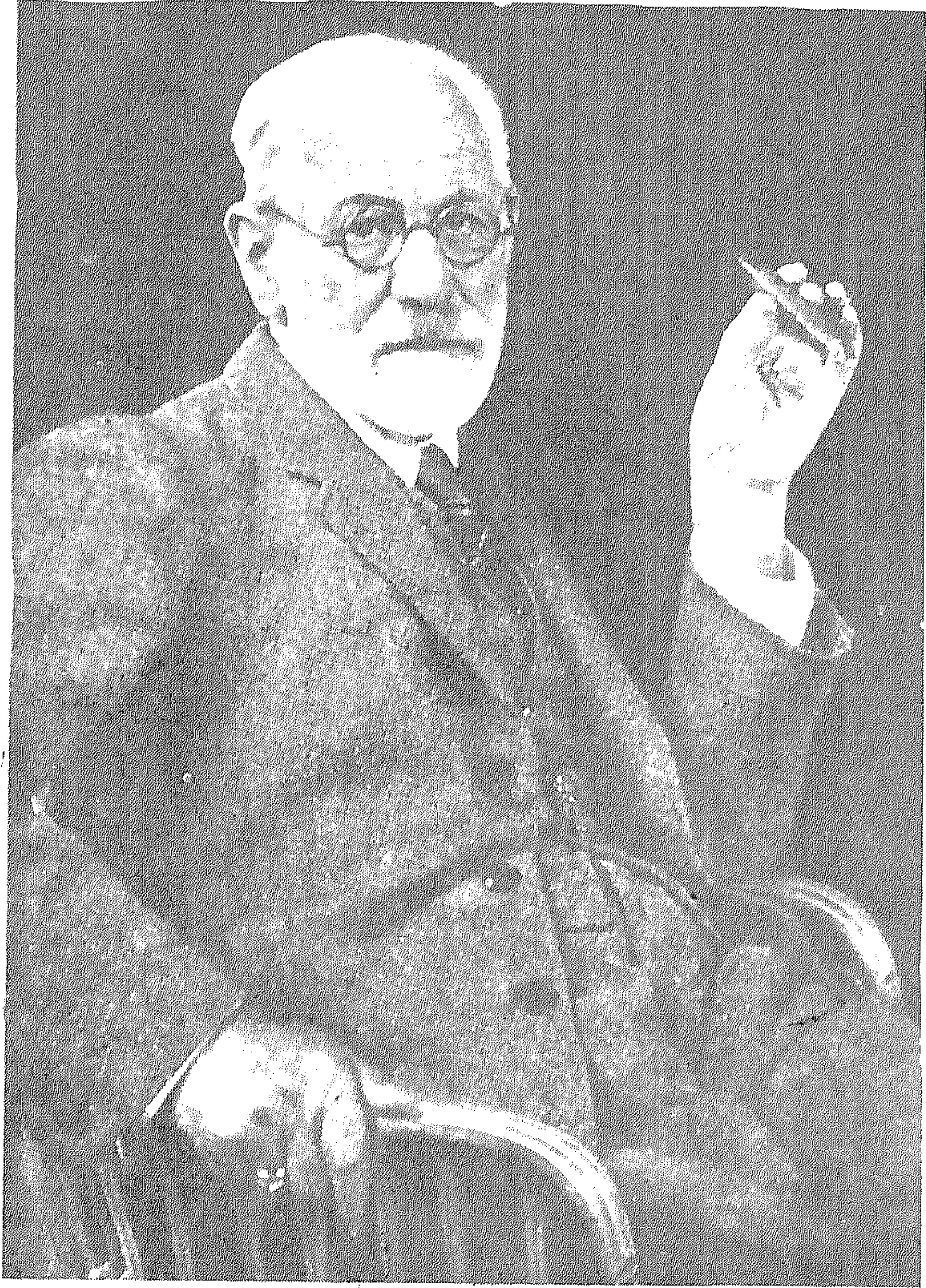
عبدالمعزم المليجي



دارالمحارف



حَيَاتِي وَالتَّحْلِيلُ الْفَيْسَى



فرويد في آخريات أيامه

المؤلفات الأساسية في التحليل النفسي

بإشراف الدكتور مصطفى زيور

حياتي والتحليل النفسي

تأليف

سيجموند فرويد

ترجمة

عبد المنعم المليجي

مصطفى زيور

الطبعة الرابعة



دار المعارف



فرويد في سن الشامنة مع أبيه.

تصدير

بقلم

الدكتور مصطفى زيور

فى السادس من شهر مايو سنة ١٩٥٦ احتفلت الأوساط المعنية بالتحليل النفسى فى جميع أنحاء العالم بمرور مائة عام على ميلاد مؤسس التحليل النفسى « سيجموند فرويد ». وقد آثر أعضاء الرابطة المصرية للتحليل النفسى أن يكون اختفاهم بهذا العيد المئوى نشاطاً علمياً ، فينشرون من الفصول والكتب ما يبرز القيم العلمية والثقافية والفلسفية للتحليل النفسى .

وأول ما ينبغى نشره بهذه المناسبة ، هو السيرة العلمية للمحتفل به ، وتاريخ جهاده العلمى . وقد اضطلع « فرويد » نفسه بهذه المهمة عام ١٩٢٥ . فقد كان أحد أقطاب الطب الذين وُجّهت إليهم الدعوة ليكتبوا سيرهم العلمية لكى تجمع فى كتاب يمثل غاية ما أحرزه الطب من تقدم . وقد نشرت سيرة « فرويد » بقلمه فى الجزء الرابع من هذا الكتاب وعنوانه « الطب فى الوقت الحاضر ممثلاً فى السير العلمية بأقلام أصحابها » - ليزج ١٩٢٥ . ولا شك أنه ما من أحد يستطيع أن يكتب سيرة « فرويد » العلمية خيراً من « فرويد » نفسه . ولذلك فقد آثرنا أن ننقلها إلى العربية بوصفها باكورة ما اعتزنا نشره من الكتب .

وئمة سبب آخر دعانا إلى البدء بنشر هذا الكتاب . فمن المعروف أن دراسة تاريخ مبحث من المباحث العلمية يُعتبر خير مدخل إليه . أما بالقياس إلى التحليل النفسى ، فإن المدخل التاريخى أمر لا بدّ منه ، إذ لا يستقيم فهم كثير من قضايا هذا العلم إلا إذا تبينا نشأتها ، وتتبعنا تطورها .

ذلك أن قضايا التحليل النفسى لا تقتصر على كونها إضافات إلى التراث

العلمى ، وإنما تحمل فى ثناياها — فضلاً عن ذلك — انقلاباً فى التصور ، وتطوراً بعيد المدى فى مذاهب البحث فى أحوال الإنسان . لقد نشأ التحليل النفسى فى أحضان الطب فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن ، فكانت نشأته إيداناً بثورة على المفاهيم الطبية التى كان يعتنقها الأطباء إذ ذاك بصدد طائفة من الأمراض . وكان ميلاده بمثابة تعديل جوهرى فى فلسفة البحث فى أخطر ما يلم بالإنسان . ومن الجلى أن فلسفة البحث فى الإنسان تنطوى على فلسفة معينة فى النظر إليه . ولا بد لفهم هذا التعديل الفلسفى الخطير من دراسة تاريخية لخطواته .

ولا تقتصر ضرورة المدخل التاريخى على ما ذكرت . فعلى الرغم من أن التحليل النفسى قلب ظهر المحن للمفاهيم الفسيولوجية فى ميدان الطب النفسى إلا أنه ظل مخلصاً لروح هذه المفاهيم ، ملتزماً بمبدء الحتمية ، مصطنعاً أساليب الملاحظة العلمية واستقصاء الوقائع وفقاً لما جرت به التقاليد فى مباحث الأحياء . وهذا يفسر لنا بعض ما دعا « فرويد » فى كتابه هذا إلى بيان ما قام به من بحوث فى مطلع حياته العلمية فى تشريح الجهاز العصبى وأمراضه . فليست هذه البحوث شيئاً منقطع الصلة باكتشافاته فى التحليل النفسى . ويكفى أن نذكر أن جمهرة الأطباء كانوا فى أواخر القرن التاسع عشر ينظرون إلى الأمراض النفسية بوصفها بعض أمراض الجهاز العصبى ، وأن البحث فى أحوال النفس لا يكون علماً إلا إذا قام على أساس من تشريح الجهاز العصبى ودراسة وظائفه ، ومن ثم فإن « فرويد » كان يدرس علم النفس وفقاً لمذاهب القرن التاسع عشر عند ما كان يجرى بحوثه التشريحية .

حقاً إن بعض أعراض الأمراض النفسية ، وبخاصة أعراض الهستيريا كانت تبدو وكأنها مخزية لاذعة بالمفاهيم التشريحية . فها هو ذا الشلل الهستيرى يشبه الشلل العضوى فى كل مظهره إلا فى عصيانه لمبادئ التشريح . ومن أجل ذلك ومن أجل أمور أخرى مماثلة أيقن « فرويد » أنه لا بد من تعديل فى مذاهب

البحث والتصور إذا أردنا أن نجلو غموض هذه المفارقات .
والواقع أن أول جولة انقلابية قام بها « فرويد » لم تكن في مجال الأمراض النفسية ، وإنما في باب من أبواب الطب العصبي العضوي ، أعني مسألة « الأفازيا » أي أمراض النطق . فقد ضاق بالتصور التشريحي البحث لهذه الأمراض لقصور هذا التصور عن تفسير كثير من مظاهرها ، وابتدع تصوراً دينامياً عني فيه بالخصائص النفسية للوظيفة اللغوية ، ونشر في ذلك رسالة يؤذن كثير من صفحاتها بالاتجاهات الفكرية التي أسفرت فيما بعد عن اكتشافاته النفسية .

على أن أهم ما نفيده من المنهج التاريخي في دراسة التحليل النفسي هو ما يسلطه هذا المنهج من أضواء على كثير من مفاهيم هذا العلم ، أضواء يستحيل علينا أن نحصل عليها بغير استخدام هذا المنهج . فقد ظل « فرويد » يبحث في تشريح النخاع الشوكي بمعهد الفسيولوجيا في فيينا زهاء ست سنوات أسفرت عن نتائج علمية من الدرجة الأولى ثم قضى بضع سنوات أخرى يبحث في تشريح المخ وأمراضه فاكشف مرض « الشلل الشبيه بالرقاص » ، وأفرد له مكاناً في المصنفات الإكلينيكية ، وقام بدراسته من النواحي التشخيصية والتشريحية والعلاجية — فضلاً عن اكتشافاته في النخاع المستطيل ، ثم اكتشافه الإكلينيكي لما يعرف في الطب العصبي « بالأجنوزيا » . وقد أصبحت هذه الاكتشافات جميعاً جزءاً من التراث الطبي خلّدت اسم « فرويد » في ميدان الأمراض العصبية العضوية .

ومن البدهي أن باحثاً هذا حظه من التوفيق لا بدّ أن يكون قد انطبع بطابع أساليب البحث العلمي السائدة في عصره ، ولا بدّ أن تكون المفاهيم الأساسية في تصور الظواهر البيولوجية قد رسخت في نفسه حتى أصبحت مقولات لا مندوحة عنها في صياغة النتائج العلمية ، وذلك على الرغم من التعديل الجوهرى الذى أحدثه في مذاهب البحث والتصور .

وجدير بالذكر أن « فرويد » ظل يشغل فترة من الوقت بالطب العصبي

العضوى بعد أن حقق اكتشافاته الأولى فى الأمراض النفسية ، إذ كان يجرى بحوثه فى كلا الميدانين فى آن واحد . فلا بد أن يكون لذلك كله أثره فى صياغة مكتشفاته السيكلوجية .

وتذكرنا المراحل التى مرت بها صياغة مكتشفاته السيكلوجية بالمراحل التى مرت بها صناعة جسم السيارة . فقد كان تصميم السيارة فى بادىء الأمر مماثلاً لتصميم العربة التى تجرها الجياد ، ثم تطوّر تدريجاً حتى أصبح شيئاً يختلف اختلافاً كبيراً عن شكل عربة الجياد . على أن السيارة بقيت على الرغم من هذا التطور مركبة تجرى على أربع عجلات . وبالمثل نجد « فرويد » يصوغ مكتشفاته فى الأمراض النفسية فى بادىء الأمر صياغة يبدو فيها أثر التصور الفسيولوجى واضحاً . ثم تحرر تدريجاً من هذا الأثر ، ولكنها تظل آخر الأمر متأثرة بالمسلّمات الأساسية فى مباحث الأحياء ، مثل مبدئ الحتمية والتصور الكمي . فإذا لم نلفظ إلى ذلك امتنع علينا فهم القضايا الأساسية المتصلة بمفاهيم مثل الشحنة ، وتفرغها ، والإزاحة ، ومبدأ الثبات ، وكل ما يتصل بالنظرة الكمية والاقتصادية إلى أحوال النفس وأمراضها .

وللمنهج التاريخى فى دراسة التحليل النفسى مزية أخرى هامة فضلاً عما سبق ذكره من مزايا . فهو أمان من الخطأ فى فهم طبيعة التحليل النفسى لدى من لم تتيسر له خبرة مباشرة بالوقائع التى يحاول هذا العلم تفسيرها . فقد درّج معظم القراء على الاطلاع على مؤلفات « فرويد » التى أصدرها فى الحقبة الأخيرة من حياته العلمية على اعتبار أنها غاية ما بلغه التحليل النفسى من التقدّم ، فكان من نتائج ذلك أن خرج معظم القراء بفكرة خاطئة مؤداها أن التحليل النفسى ضرب من الجدل النظرى فى طبيعة النفس وأمراضها . ذلك أنهم لم يفتنوا إلى أن « فرويد » أطلق العنان فى مؤلفاته المتأخرة لميل إلى الجدل الفلسفى طالما كبح جماحه فى الفترة الأولى من حياته العلمية . فلم يكن يقصد فى مؤلفاته المتأخرة إلى تكرار ما سبق أن بينه فى بحوثه الأولى من الوقائع الإكلينيكية وما أسفر عنه استقصاؤها

من نتائج وفقاً لأساليب البحث العلمى .

وليل « فرويد » إلى الجدل الفلسفى قصة ينبغى أن نشير إليها/ إشارة موجزة .
فها هو يذكر فى كتابه هذا (ص ٦٩) : « وفى المؤلفات التى تمت فى الأعوام
التالية (ما بعد مبدأ اللذة ، نفسية الجماعة وتحليل الأنا ، الأنا والهو) أطلقت
العنان للميل إلى التفلسف الذى كبخته زمناً طويلاً وأعملت فكرى فى حل جديد
لمشكلة الغرائز » . والواقع أن « فرويد » كان منذ حدائته « أكثر تعطشاً إلى
الأمور الإنسانية منه إلى موضوعات العلوم الطبيعية » كما يقول فى كتابه هذا
(ص ١٦) . ثم يعقب على ذلك قائلاً : « غير أن نظريات دارون التى شاع
الاهتمام بها فى ذلك الحين اجتذبتنى إليها اجتذاباً قوياً لما كانت تبشر به من تقدم
فائق فى فهم الكون ، وأذكر أن استماعى مقال جوته الممتع عن الطبيعة يلقيه فى
محاضرة عامة الأستاذ كارل برول قبيل تخرجى من المدرسة هو الذى جعلنى أقرر
أن أدرس الطب » .

إن نظرة فاحصة لسيرة « فرويد » العلمية — كتلك التى تتيحها لنا قراءة
كتابته هذا — تبين لنا أنه كان بفطرته طلعة ، شديد الاحتفال بمشاكل الإنسانية
على النحو الذى يميز الفلاسفة السلفيين ، غير أنه يختلف عنهم فى الطريق الذى
سلكه لإشباع شغفه بالمعرفة . فقد هداه تفكيره إلى أن طريق الاستقصاء وفقاً
لأساليب البحث العلمى هو الطريق المأمون الكفيل بأن يجنبه شطط الجدل
الفلسفى ، فأقبل على أدوات البحث العلمى يمارسها ويلتزم بها دون غيرها زهاء ربع
قرن .

غير أن شغفه الفلسفى كان حافزاً حاسماً فى توجيه بحوثه ، وعاملاً هاماً فى
التفاتة إلى الناحية الإنسانية فى أمراض النفس . وبعبارة أخرى إن طبيعة التحليل
النفسى تقتضى أن يكون مكتشف هذا العلم فيلسوفاً من حيث اتساع الأفق ،
عالمًا من حيث أساليب البحث . كان الميل الفلسفى إذن عاملاً هاماً فى نشأة

التحليل النفسى طالما كان مكبوحاً ، وكان من حق « فرويد » أن يشبع هذا الميل بعد أن أيقن أنه أنجز ما التزم بإنجازه من استقصاء علمى فكانت مؤلفاته المتأخرة « فيما بعد علم النفس » .

وقد أوضح « فرويد » رأيه فى نظراته الجدلية هذه فقال : « يكفى أن نذكر أنه بدا لى أمراً مشروعاً أن ألحق بالنظريات التى كانت تعبيراً مباشراً عن الخبرة فروضاً غرضها أن تعيننا على تفهم الوقائع ، فروضاً متعلقة بأمور لا يمكن أن تخضع للملاحظة المباشرة ، وليس هذا بدعاً فقد نهجت العلوم السابقة نفس النهج . . . هذه الأفكار بمثابة بناء نظرى إضافى للتحليل النفسى ، يمكن لأى جانب منه أن يترك أو يعدل دون خسارة أو أسف حالما نتبين عدم صلاحيته » . (هذا الكتاب ص ٤٠ - ٤١) :

تنقسم مؤلفات « فرويد » إذن قسمين : القسم الأول ، ويقع معظمه فى الفترة الأولى من حياته العلمية يعالج - فى مقالات موزعة على الدوريات الطبية - الوقائع الإكلينيكية ، ويعرض نتائج مشاهداته المنهجية . والقسم الثانى ، ويقع معظمه فى الفترة الأخيرة من حياته يناقش فيه فروضاً جدلية لا تعدو أن تكون فلسفة الباحث بعد أن انتهى من بحثه . هذه الحقيقة تغيب عن معظم القراء وتجعل دراسة التحليل النفسى دراسة تاريخية شيئاً لا بد منه .

* * *

وينبغى أن أشير فى ختام هذا التصدير إلى أن الحق فى إبداء الرأى فى مبحث من مباحث العلم ليس حقاً طبيعياً ، وإنما هو حق يكتسب . ولا يكون اكتساب هذا الحق إلا بممارسة الأساليب التجريبية فى مشاهدة الوقائع موضوع البحث ، والتزام قواعد التنقيب الخاصة به . فنحن لا نسيغ أن يناقش أحدنا - بالغاً ما بلغ ذكاؤه - مسائل الكيمياء إلا إذا كان قد مارس التجريب الكيميائى فى معاملة كما يمارسه الكيميائى . ولا جدوى من التذرع بالمنطق الفطرى فى مناقشة أحوال النفس بحسبانها أموراً فى متناول كل مفكر ، لأن القضية الأولى

فى التحليل النفسى أن جانباً عظيماً من أحوال النفس يظل لاشعورياً ، وأن مقاومة عنيدة طبيعية لدى كل إنسان تحول دون البصر بهذا الجانب اللاشعورى إلا إذا استخدمنا منهجاً معيناً للظهور على هذه المقاومة ، ومن ثمّ فإنه من اللامنطق أن نتذرع بالمنطق فيما لا سبيل إليه بالمنطق .

فإذا اصطنعنا منهج التداعى الحر ، أى أن يحاول رجلان — يلتقيان لأول مرة — اتخاذ موقف تجريبي يطلق فيه الأول لخوابره العنان ليدلى بكل ما يمرّ بذهنه مهما كان تافهاً أو مشيناً ، ويستمع فيه الثانى إلى الأول فى هدوء ولكن من غير إجهاد فسيذكران — إن عاجلاً أو آجلاً — حقيقتين أساسيتين تضمان قضايا التحليل النفسى بأسرها . والحقيقة الأولى هى المقاومة ، أى أن الشخص الأول سيصطدم برغبته عن الإدلاء بما فى نفسه ، ثم بعدم قدرته على ذلك مهما كان إخلاصه فى إنجاز التجربة ، إذ يجد خوابره قد توقفت أو تشعبت واستخفت . وإذا حاول الثانى أن يبصر الأول فى أناة وصبر وتكرار بما لا يكون قد فطن إليه من التوقف والتشعب والاستخفاء فستعود خواطر الأول فى النهاية إلى الانسياب الصحيح ، وسيدرك عندئذ فى نفسه من المشاعر ما لم يكن فى حسبانها ، أو يتذكر من الحوادث ما قد أنسيه منذ عشرات السنين .

ومن الجلى أن المجهود الذى يبذله الثانى فى الظهور على هذه المقاومة يصلح مقياساً لمقدار الجهد الذى يبذله الأول فى الاستخفاء . فإذا ذكرنا أن ما يطفو على السطح من الخواطر عند نجاح تجربة التداعى الحر يكون عادة مما تنبو عنه النفس ، أو مما تجفل منه ، وضح لنا أن ثمة عملية قضت على المجهول أن يظل مجهولاً خارج هذه التجربة ، وأفضت إلى المقاومة دون الاستبصار داخلها . وقد أُطلق على هذه العملية لفظ الكبت . ومن اليسير أن ندرك أن بين القوى المكبوتة والقوى الكابتة صراعاً تفتضح آثاره فى أشكال المقاومة العديدة .

أما الحقيقة الثانية التى تبرزها تجربة التداعى الحر فهى ظاهرة « النقل » ، أى أن الشخص الأول لا يلبث أن يستشعر إزاء الثانى من الانفعالات ما لا

يبرره الموقف الذى يكتنفهما . ويستخدم « النقل » كوسيلة للمقاومة ، فإذا ما عولج كما يعالج غيره من ألوان المقاومة وضح فى النهاية أن هذه الانفعالات ترديد لمواقف وجدانية كان قد وقفها الأول من والديه أثناء طفولته . فإذا عرفنا أن الشخص الأول — إذ هو فى غمار حالة النقل — يرى الثانى حيناً كأنه أم يسعى إلى عطفها ، ويستشعر نحوها حباً جارفاً مشوباً بدفعات جنسية حتى ليغار عليها من كل دخیل ، ويراه حيناً آخر كأنه أب يرهبه ويخشى بطشه بوصفه غريباً يود استبعاده بالموت ، ويستشعر الذنب لما راوده نحوه من نوايا آثمة — لوضحت لنا فى النهاية كل مقومات ما يطلق عليه « الموقف الأودى » ، وتكشفت لنا طبيعة الحياة الجنسية أثناء الطفولة .

هذه هى الأحجار الأساسية فى بناء مبحث التحليل النفسى . وتتصل بها مجموعة من الحقائق يمكن الوقوف عليها تجريبياً على النحو السالف ذكره بصدد الكبت والصراع فى الحياة الجنسية إبان الطفولة ، والواقع أن الأثر العلاجى للتحليل النفسى يرجع إلى تنبه المريض إلى هذه الحقائق وإحساسه بها كخبرة حية . أما ما عدا ذلك من نظريات فليس جزءاً من مبحث التحليل النفسى وإنما هو ما يندرج تحت ما دعاه « فرويد » « ما بعد علم النفس » ، وهو كما قال « بناء نظرى إضافى للتحليل النفسى يمكن لأى جانب منه أن يُترك أو يعدل دون إحساره أو أسف حالما نتبين عدم صلاحيته » .

مصطفى زيور

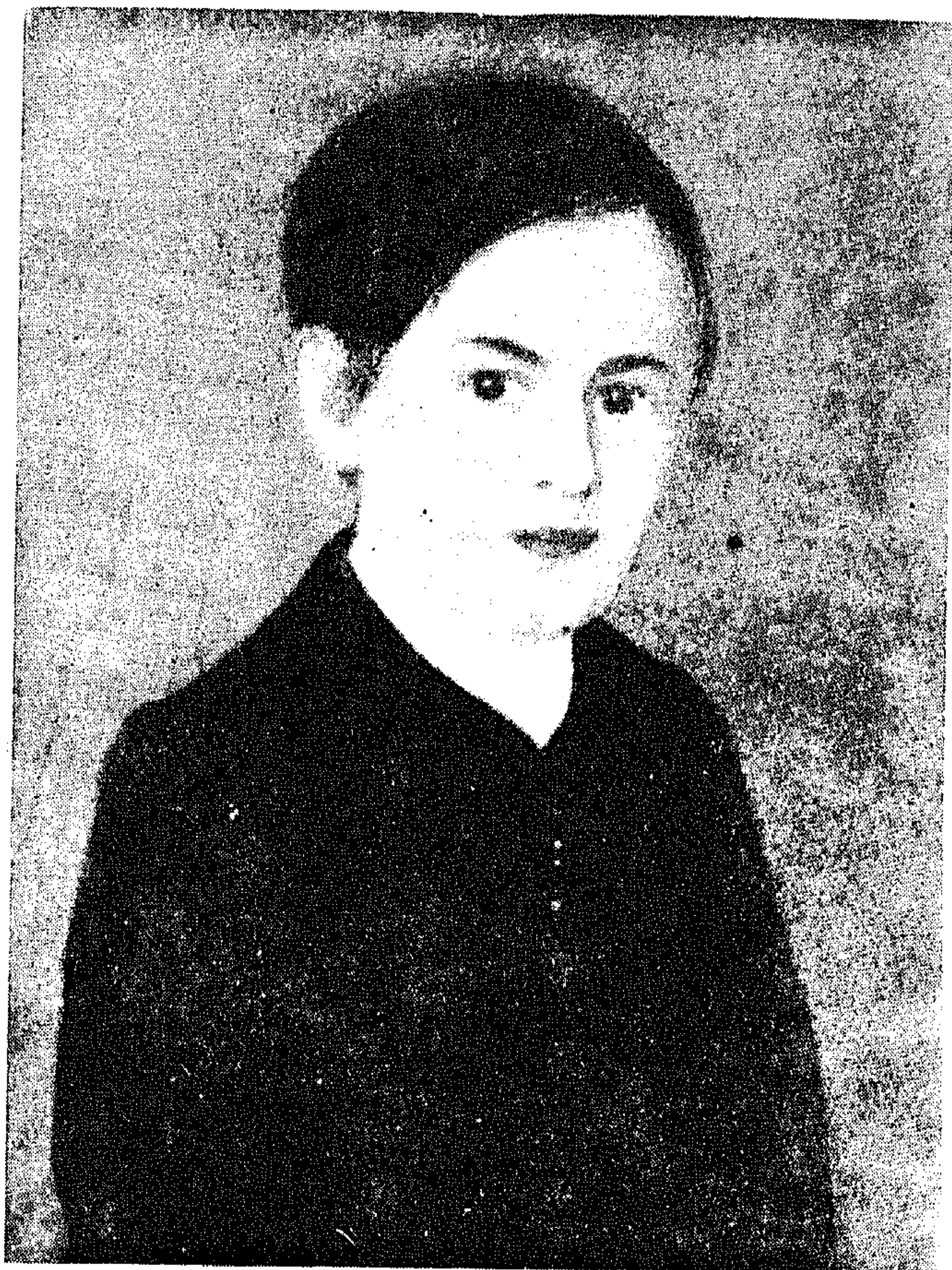
دكتور فى الطب

رئيس عيادة الأمراض النفسية بكلية الطب

بپارىس سابقاً

أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس

عضو الجمعية الدولية للتحليل النفسى



فرويد في الثانية عشرة من عمره.

مُقَدِّمَةُ الْمُؤَلَّفِ

استهل كثير من المشتركين في هذه السلسلة من «دراسات السير الخاصة» بالإعراب عن تهيئهم إزاء الصعاب غير العادية التي تكتشف المهمة التي التزموا بها. وإني أعتقد أن الصعاب في حالي أعظم؛ لأنني كنت قد نشرت بالفعل غير مرة مؤلفات تنحو منحى الكتاب الحالي، اقتضتني طبيعة موضوعها، أن أعرض لمسائل شخصية أكثر مما هو مألوف أو أكثر مما ينبغي عادة.

فكان أول بيان لي عن تطور التحليل النفسي وموضوعه في خمس محاضرات ألقيتها عام ١٩٠٩ في جامعة كلارك بورستر، في ولاية ماساشوستس، (بالولايات المتحدة)، حيث دعيت لحضور الاحتفال بمرور عشرين عاماً على إنشاء تلك الجامعة^(١). وارتضيت أخيراً أن أسهم بعمل يشبه ذلك في منشور أمريكي جماعي يتناول مطلع القرن العشرين، حيث أعرب رؤساء التحرير عن اعترافهم بأهمية التحليل النفسي، بأن أفردوا له فصلاً خاصاً^(٢). وبين هذين التاريخين ظهر بحث عن «تاريخ حركة التحليل النفسي»^(٣) يتضمن في حقيقة الأمر أهم ما يمكن أن أذكره في المناسبة الراهنة. ولما كان على ألا أناقض نفسي، ولما كنت لا أودّ أن أردد بالضبط ما أسلفت، فلا بد لي أن أحاول أن أقدم سرداً تمتاز فيه على نحو جديد الاتجاهات الذاتية والموضوعية، أي سيرتي الخاصة والمسائل التاريخية.

(١) نشرت هذه المحاضرات لأول مرة بالإنجليزية في مجلة علم النفس الأمريكية عام ١٩١٠؛ وصدر الأصل الألماني بعنوان Ueber Psychoanalyse في فيينا عام ١٩١٠.

(٢) تلك الأعوام الزاخرة بالأحداث (نيويورك ١٩٢٤)، كتاب في مجلدين. ويشغل مقالتي الذي ترجمه الدكتور «أ.أ. بريل» الفصل XXXIII من المجلد الثاني من هذا الكتاب.

(٣) نشر في Jahrbuch der Psychoanalyse، ١٩١٤.

الفصل الأول

ولدت في السادس من مايو عام ١٨٥٦ ، في فريرج بموراڤيا ، تلك المدينة الصغيرة التي توجد فيها يعرف الآن بتشيكوسلوفاكيا . وكان والداي يهوديين وبقيت أنا كذلك . ولدى من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد أن أسرة أبي أقامت زمناً طويلاً على شاطئ الراين (عند كولونيا) ، وأنها هربت صوب الشرق نتيجة اضطهاد اليهود إبان القرن الرابع عشر أو الخامس عشر ، وفي القرن التاسع عشر قفلت راجعة من لتوانيا إلى النمسا الجرمانية عبر غاليسيا . وفي السنة الرابعة من عمري نزلتُ إلى فيينا ، وهناك تلقيت تعليمي بأسره . وفي المدرسة بقيت سبعة أعوام على رأس فرقتي ؛ وهناك كنت أنعم ببعض الامتيازات وقلما اقتضى الأمر أن أؤدي امتحاناً ما ، وبرغم رقة أحوالنا المعيشية فقد أصرّ أبي على أن تكون ميولي الخاصة هي رائدي في اختيار مهنتي . ولم أكن في ذلك الوقت أو في أي وقت آخر من حياتي أستشعر ميلاً خاصاً إلى مهنة الطب . إنما كنت مدفوعاً بضرب من الفضول كان دائماً أكثر تعطشاً إلى الأمور الإنسانية منه إلى موضوعات العلوم الطبيعية ؛ بل ما كنت ألمس بعد أهمية الملاحظة بوصفها إحدى الوسائل الرئيسية لإشباع ذلك الفضول . وكان لمعرفتي بقصص الكتاب المقدس (ولما لم أكد أتعلم القراءة) ، كما اكتشفت بعد ذلك بزمان طويل ، أثر دائم في توجيه اهتمامي . وقد كان لصداقة مدرسية نشأت بيني وبين فتى يكبرني بقليل ، أصبح فيما بعد من أعلام السياسة ، تأثير قوي في نفسي فأردت أن أدرس مثله القانون وأن أكرّس نفسي للشئون الاجتماعية . غير أن نظريات دارون التي شاع الاهتمام بها في ذلك الحين اجتذبتني إليها اجتذاباً قوياً لما كانت تبشر به

من تقدم فائق في تفهم الكون ؛ وأذكر أن استماعي مقال جوته الممتع عن الطبيعة يلقيه في محاضرة عامة الأستاذ كارل برول قبيل تخرجي من المدرسة هو الذي جعلني أقرر أن أدرس الطب . وعند التحاقى بالجامعة عام ١٨٧٣ عانيت من خيبة الأمل الشيء الكثير . فقد واجهت التزاماً غريباً : كان على أن أشعر أنني دون غيري من الناس وأني غريب عنهم لأنني كنت يهودياً . ولكنني أبيت إباءً تاماً أن أرضخ للأمر الأول . فلم أكن أستطيع أن أتبين لماذا أجد معرة من أصلي أو ، كما شرع الناس يقولون ، من جنسي . أما عن قبولي في المجتمع فقد تنازلت عنه دون أسف شديد ، فقد كنت أشعر برغم ذلك الإبعاد أن من يساهم بعمله مع غيره من الناس في جدّ ونشاط لن يعدم مكاناً ما في هيكل المجتمع الإنساني . غير أن هذه الخبرات الأولى بالجامعة ، تمخضت عن نتيجة بانّت أهميتها فيما بعد ؛ هي أنني ألقت في سن مبكرة المصير الذي قضى على أن أكون في المعارضة ، وأن أكابد لعنة الأغلبية المتضامنة . وهكذا هيئتُ إلى قدر من الاستقلال في الرأي .

وبالإضافة إلى هذا ، لم يكن بدّ أن اكتشف منذ سنواتي الأولى بالجامعة أن طبيعة مواهبي وحدودها تحول بيني وبين التوفيق في كثير من فروع العلم التي كنت مدفوعاً إليها بحميتي الفتية الفائقة . وهكذا عرفت صدق تحذير مفيستوفوليس :

« سدى تجول في دروب العلم :

لا يتعلم المرء غير ما يستطيع تعلمه . » ^(١)

وأخيراً وجدت في معمل إرنست بروك الفسيولوجي راحة ورضى ، فضلاً عن قوم أبجلهم وأقندى بهم : هم بروك العظيم نفسه ، ومساعداه سيجموند إكسندر وإرنست ثون فليشل ماركسو . وكان من حظي أن ارتبط برباط الصداقة مع الأخير وهو رجل لامع . وقد عهد إلى بروك بمشكلة أبحاثها في تشريح خلايا الجهاز

(١) فاوست ، الجزء الأول ، مفيستوفوليس والتلميذ .

العصبي ؛ فوفقت إلى حلها حلاً حاز رضاه ثم مضيت بالبحث وحدي .
 ظللت أعمل بهذا المعهد فترة من ١٨٧٦ حتى ١٨٨٢ تخللتها عطلات قصيرة ،
 وكان المفروض أن أشغل أول مركز مساعد يخلو . ولم تكن تستهويني مختلف
 فروع الطب ذاته ، فيما عدا الطب النفسى . فكنت أتابع دراساتي الطبية في
 إهمال بالغ فحصلت على شهادة دكتور في الطب في وقت متأخر إذ لم يكن ذلك
 قبل عام ١٨٨١ .

وكانت نقطة التحول عام ١٨٨٢ إذ أصلح أستاذى الذى كنت أضمر له
 أعظم التقدير عاقبة إفراط أبى فى التساهل معى فنصحنى ملحاً ، أن أتخلى عن
 عملى النظرى نظراً لسوء مركزى المالى . وقد عملت بنصيحته ، فتركت معمل
 الفسيولوجيا والتحققت طبيباً تحت التمرين بالمستشفى العام . وبعد قليل رُقيت إلى
 وظيفة طبيب مقيم (نائب) وتنقلت بين مختلف أقسام المستشفى ، فقضيت ستة
 أشهر فى قسم ميّرت (أستاذ الطب العقلى) ، الذى بهرنى عمله كثيراً وشخصيته
 منذ كنت طالباً .

ومع ذلك فقد بقيت وفياً على نحو ما للاتجاه الذى بدأته فى الأصل . فقد
 كان الموضوع الذى اقترحه بروك لبحوثى النخاع الشوكى لنوع من أدنى أنواع
 السمك ، *Ammocoetes petromyzon* ثم انتقلت إلى الجهاز العصبى
 المركزى للإنسان . وفى ذلك الحين كانت كشوف فليشيج الخاصة بعدم تكون
 الأغلفة النخاعية دفعة واحدة قد ألفت ضوءاً ساطعاً على التركيب المعقد لمسالك
 ذلك الجهاز . ثم إن مبادرتى إلى اختيار النخاع المستطيل دون غيره موضوعاً لبحثى
 جاءت دليلاً آخر على أن تطورى كان سائراً على نحو متصل . وعلى حين كانت
 دراساتي إبان أعوامى الأولى بالجامعة تتصف بالتوزع ، إذا بى بعدئذ وقد أخذ
 يتركزنى ميل إلى أن أحصر كل جهدى فى موضوع أو مشكلة بعينها ، وقد
 لازمنى ذلك الميل وأصبح منذ ذلك الحين سبباً فيما اتهمت به من انحياز إلى جانب
 واحد .



شاركو بحاضر في مستشفى سالكيريون - باريس ۱۸۸۵

ولم ألبث أن صرت في معهد تشريح المخ باحثاً مجداً ، شأني حين كنت في معهد الفسيولوجيا من قبل . فإلى تلك السنوات التي قضيتها بالمستشفى يرجع ما كتبت من مقالات عن المسالك وأصول النوى ^(١) في النخاع المستطيل . وكان إدينجر (رائد من أكبر رواد تشريح الجهاز العصبي) يطلع بانتظام على نتائجي وفي ذات يوم عرض عليّ مينرت ، وكان قد أباح لي معمله حتى قبل أن أصبح بالفعل مشغلاً تحت إشرافه ، أن أتفرغ نهائياً لتشريح المخ ، ووعدني أن يعهد إليّ بإلقاء المحاضرات بدلاً عنه إذ بدأ يشعر أنه بلغ من السن مبلغاً لا يستطيع معه أن يباشر الطرق المستحدثة . ولكنني رفضت ذلك العرض تهيئاً من جسارة المهمة ؛ ولعلني كنت أحس أيضاً أن ذلك الرجل العظيم لم يكن يختصني بشعور المودة الخالصة .

ومما لا شك فيه أن تشريح المخ لم يكن ، من الناحية العملية ، خيراً من الفسيولوجيا ، فوضعت نصب عيني الاعتبار المادية ، وشرعت في دراسة الأمراض العصبية . ولكن الإخصائيين في هذا الفرع من الطب في فيينا كانوا نقرأ قليلاً في ذلك الحين ، وكان المرضى المصابون بالأمراض العصبية موزعين على مختلف أقسام المستشفى ، ولذلك لم تكن ثمت فرصة مواتية للدراسة الموضوع ، فلم يكن مناص أن يكون المرء أستاذاً لنفسه . بل إن فوثناجل ، الذي عين قبل ذلك بوقت وجيز بفضل كتابه عن دراسة المراكز المخية ، لم يُفرد لعلم الأمراض العصبية مكاناً كغيره من الدراسات الطبية . هنالك كان اسم شاركو Charcot يومض من بعيد ؛ فصممت على أن أحصل على وظيفة محاضر في الأمراض العصبية في فيينا ثم أغادرها إلى باريس لأتم دراساتي .

وفي خلال الأعوام التالية ، وبينما كنت لا أزال أعمل طبيباً مقيماً ، نشرت عدداً من المشاهدات الإكلينيكية عما يلحق بالجهاز العصبي من إصابات عضوية . وأخذت خبرتي بهذا الميدان تزداد شيئاً فشيئاً ؛ حتى أصبح بوسعي أن أحدد

(١) جمع نواة . (المترجم)

موضع إصابة ما في النخاع المستطيل تحديداً كان من الدقة بحيث لم يعد بوسع المشرح الباثولوجي أن يضيف شيئاً جديداً ؛ وكنت أول شخص في فيينا يبعث للمشرحة بحالة شخصتها التهاب أعصاب حاد .

ذاعت شهرة تشخيصاتي التي كان يؤيدها تشريح الجثة ، فأقبل على سبل من الأطباء الأمريكيين ، كنت أحاضرهم عن المرضى في قسمي بلغة إنجليزية ركيكة . ولم أكن أفهم شيئاً عن الأمراض العصبية ^(١) ، حتى أنني ذات مرة عرضت على جمهور المستمعين حالة مريض عصابي ، يشكو من صداع دائم بوصفها حالة التهاب سحائي موضعي مزمن ؛ وعن حق ثار الجميع على وانفضوا من حولي وكان ذلك خاتمة النشاط التعليمي الذي اضطلعت به قبل الأوان . ولكنني أضيف على قبيل الاعتذار أن ذلك حدث في وقت كان ثمة من ثقات فيينا من يدأب على تشخيص النيوراستنيا ورماً في المخ .

وفي ربيع عام ١٨٨٥ عينت محاضراً في علم الأمراض العصبية استناداً إلى ما نشرته من بحوث هستولوجية وإكلينيكية . وبعد قليل ، على أثر شهادة حارة من برملك منحت مكافأة مالية كبيرة لرحلة دراسية . وفي خريف نفس العام رحلت إلى باريس .

أصبحت طالباً بمستشفى سالپترير ، ولكنني كفرد في غمار زوار أجناب لم أحظ في بادئ الأمر إلا بانتباه ضئيل . وفي ذات يوم سمعت شاركو يعرب عن أسفه لانتقطاع أخبار المترجم الألماني لمحاضراته منذ الحرب ؛ ثم يمضي قائلاً إنه يسره لو وجد من يقوم بترجمة مجموعة محاضراته الجديدة إلى الألمانية ، وعلى أثر ذلك كتبت إليه أعرض القيام بذلك العمل ؛ ولا زلت أذكر عبارة من رسالتي إليه ، عن كوني أعاني « الأفازيا الحركية » لا « الأفازيا الحسية » في اللغة الفرنسية ^(٢) : وافق شاركو ، وبذلك أصبحت في دائرة المقرئين إليه ، ومنذ

(١) العصبية : اصطلاح يشير إلى الأمراض النفسية . (المترجم)

(٢) يقصد بهذه التورية الطبية أنه يفهم الفرنسية جيداً وإن كان لا يتكلمها بطلاقة . (المترجم)

ذلك الحين فصاعداً ساهمت مساهمة كاملة في كل ما كان يجري في المستشفى .
 وإذا كتب هذه السطور ، يوافيني من فرنسا عدد من المقالات وقصصات
 الجرائد ، تعرب عن معارضة عنيفة للتحليل النفسي ، وتصف علاقائي بالمدرسة
 الفرنسية وصفاً يعوزه قدر كبير من الدقة . أطالع مثلاً أنني انتهزت فرصة إقامتي
 بباريس في الوقوف على نظريات پير چانيه ثم تسالت بالغميمة هارباً . وإزاء ذلك
 أود أن أصرح أن اسم پير چانيه لم يرد ذكره قط طوال إقامتي بمستشفى سالپترير .
 وكان أكثر الأشياء تأثيراً في نفسي خلال الفترة التي قضيتها مع شاركو ،
 آخر بحوثه عن الهستيريا ، وقد شاهدته يجري بعض تلك البحوث ، من ذلك أنه
 أثبت أن الأعراض الهستيرية وقائع طبيعية تنتظمها قوانين (أدخلوا فالآلهة هنا)^(١)
 كما أثبت كثرة إصابة الرجال بالهستيريا ، وإحداث الشلل والتقلصات الهستيرية
 بواسطة الإيحاء التنويمي وأن تلك الأعراض التي يثيرها الطبيب صناعياً لا تختلف
 في شيء عن أعراض الإصابات التلقائية ، التي كانت تنجم عادة عن الصدمات .
 وكان كثير من أدلة شاركو في مبدأ الأمر يثير في نفسي وفي غيري من الزوار
 شعوراً بالدهشة وميلاً إلى التشكك ، كنا نحاول تبريره مستندين إلى إحدى
 النظريات السائدة حينئذ . وكان دائماً يتقبل الاعتراضات بكل تسامح وصبر ،
 ولكنه كان مع ذلك حاسم الرأي ! وفي إحدى تلك المناقشات صدرت منه بصدد
 تلك النظريات العبارة الآتية : « ولكنها لا تحول دون قيام الواقع » وقد تركت
 تلك العبارة في ذهني أثراً لا يمحي .

ولا شك أن ما تعلمناه من شاركو في ذلك الحين لم يعد كله اليوم
 صحيحاً : فقد أصبح بعضه مشكوكاً في صحته ، وتهيأ البعض نهائياً أمام
 اختبار الزمن . بيد أن الكثير بقي واحتل مكاناً دائماً في ذخيرة العلم . وقبل أن

(١) عبارة لاتينية Introite, et hic dii sunt يقتبسها بقصد الإشارة إلى أن تعمق
 الأعراض المرضية سرعان ما يكشف وراء الفوضى الظاهرية نظاماً كذلك النظام الذي صنع الآلهة
 العالم على غرار . (المترجم)

أغادر باريس ناقشت مع الرجل العظيم مشروع دراسة مقارنة للشلل المستيري والعضوى . وكنت أودّ أن أثبت نظريتي في أن حدود الشلل وفقدان الحساسية في مختلف أجزاء الجسم ، في مرض المستيريا تتعين طبقاً للفكرة الشعبية عنها لا طبقاً للحقائق التشريحية . وقد أقرّني شاركو على هذه النظرية ، ولكنى لمست في وضوح أنه لم يكن يهتم اهتماماً خاصاً بالتعمق في دراسة سيكولوجية العصاب . فهو بعد قد ابتدأ بحوثه بالتشريح الباثولوجى .

وفى طريق عودتى إلى فيينا أقمت في برلين بضعة أسابيع بغية اكتساب قدر من العلم بالأمراض العامة لدى الأطفال . وكان كاسوفتر ، وهو مدير مؤسسة عامة في فيينا لعلاج أمراض الأطفال ، قد وعد أن يسند إلى قسم الأمراض الأطفال العصبية . وفى برلين قدّم لى باجنسكى يد المساعدة وأحسن وفادتى . وفى غضون الأعوام القلائل التالية نشرت ، من معهد كاسوفتر بضع رسائل مستفيضة عن الشلل المنحى الجانبي والكلى للأطفال وذلك ما جعل نوثناجل فيما بعد (أى سنة ١٨٩٧) يسند إلى أمر معالجة نفس الموضوع ضمن كتابه الكبير : « المجل في العلاج العام والخاص » .

وفى خريف ١٨٨٦ استقر بى المقام في فيينا كطبيب ، وتزوجت من الفتاة التى بقيت في انتظارى بمدينة قاصية أكثر من أربعة أعوام . وبوسعى الآن أن أرجع إلى الوراء قليلاً لأبين إلى أى حدّ كانت خطيبتى مشغولة عن عدم ذبوع شهرتى في تلك السن المبكرة . فقد أدّى بى اهتمام خارج عن دراسائى الأصلية ، وإن كان اهتماماً عميقاً ، إلى أن أحصل من « ميرك » في سنة ١٨٨٤ على قدر من شبه قلوى لم يكن قد ذاع وهو الكوكاين حتى أدرس آثاره الفسيولوجية ، وإذ أنا في غمرة البحث ، تعرض لى فرصة السفر لزيارة خطيبتى ، وكنت قد فارقتها منذ سنتين خلّتا . فعجلت الفراغ من البحث ، قانعاً بالتكهن في الكتاب الذى ألفته عن الموضوع بقرب اكتشاف منافع أخرى للكوكاين . ومع ذلك فقد اقترحت على صديقى كوينجشتين ، طبيب الرمد أن يفحص مدى



فرويد مع خطيبته مارتا برنایس، ۱۸۸۵

استخدام خصائص الكوكايين التخديرية في أمراض العين . ورجعت من عطلتى لأجد أن صديقاً آخر غير كوينجشتين هو كارل كولر (فى نيويورك حالياً) وكنت قد تحدثت إليه أيضاً عن الكوكايين ، قد فرغ من إجراء التجارب الحاسمة على عيون الحيوانات وعرضها على مؤتمر الرمد فى هيدلبرج . ومن ثمت يعتبر كولر عن حق المكتشف للتخدير الموضعى بواسطة الكوكايين ، الأمر الذى أصبح ذا أهمية عظيمة للجراحة الصغرى ؛ ومع ذلك فلست بناقم على خطيبتى تعطيلها إياى عن مواصلة بحثى .

والآن أعود ثانية إلى عام ١٨٨٦ ، حين استقر بى المقام فى فيينا أخصائياً فى الأمراض العصبية ، حينئذ كلفت بإلقاء تقرير أمام الجمعية الطبية عما شاهدت وأفدت لدى شاركو . بيد أننى قوبلت بمقابلة سيئة . إذ أعلن ثقات كبار مثل الرئيس (بامبرجر الطبيب) أن ما قلت غير حقيق بالتصديق . وألح على « ماينرت » أن ألتبس فى فيينا بعض الحالات المماثلة لتلك التى وصفتها كى أعرضها على الجمعية . وقد حاولت أن أفعل ذلك ؛ ولكن رؤساء الأقسام من الأطباء الذين وجدت فى أقسامهم بعض هذه الحالات أبوا أن يسمحوا لى بملاحظتها أو بإجراء البحث عليها ، حتى إن أحدهم ، وهو جراح مسن ، ثار فعلاً وأعرب عن عجبه قائلاً : ” ولكن كيف تستطيع ذكر هذا الهذر يا سيدى العزيز ؟ إن هستيرى معناها الرحم . أنى إذن لرجل أن يكون هستيرياً ؟ “ وعبثاً حاولت أن أرد بأن ما أريد ليس الموافقة على تشخيصى ولكن أن توضع الحالة تحت تصرفى . وأخيراً ، اهتديت خارج المستشفى ، إلى حالة رجل مصاب بتخدير نصفى هستيرى أصيل ، وقمت بعرضها أمام الجمعية الطبية ، وفى هذه المرة حظيت بالثناء ، ولكن أحداً لم يعرنى اهتماماً بعد ذلك ، وثبت لدى أن ما قدمت من معلومات جديدة لم يلق من الثقات غير الإعراض ، وألفيت نفسى فى موقف الخارج على الإجماع لقولى بوجود هستيرى لدى الرجال وإحداث الشلل الهستيرى عن طريق الإيحاء . وحيث أننى استبْعِدْتُ بعد ذلك بقليل من معمل

تشريح المخ وبقيت فصلاً دراسياً كاملاً دون مكان ألقى فيه محاضراتي ،
فقد اعتزلت الحياة الدراسية وانقطعت عن حضور المحافل العلمية . ومنذ ذلك
الحين لم أغش الجمعية الطبية .

كان لا بدّ لمن يريد أن يرتزق من علاج مرضى الأعصاب أن يكون بوسعه
أن يقدم لهم معونة ما . ولم يكن لي من ذخيري العلاجية في ذلك الحين غير
سلاحين ، هما العلاج الكهربائي والتنويم ، ذلك أن الإشارة على المرضى بالذهاب
إلى إحدى مصحات العلاج بالمياه بعد استشارة واحدة لم تكن مصدر ربح ملائم .
أما عن العلاج الكهربائي فكانت معرفتي به مستمدة من كتاب « و . إرب » الذي
يزخر بتفاصيل الإرشادات لعلاج جميع أعراض الأمراض العصبية . ولكنني لم
أبث أن تبينت لسوء الحظ ألاّ فائدة على الإطلاق من اتباع تلك الإرشادات
وأن ما اعتبرته خلاصة ملاحظات دقيقة لم يكن إلا من نسج الأوهام . كم آلمني
أن أتأكد أن ما كتبه أعظم اسم في علم الأمراض العصبية بألمانيا لم يكن أكثر
استناداً إلى الواقع من كتاب خرافي بال عن الأحلام كتلك الكتب التي تباع في
أبخس المكتبات ، ولكنني أفدت من ذلك إذ تخلصت من البقية الباقية من
الإيمان الساذج بالثقافات ، ذلك الإيمان الذي لم أكن قد تحررت منه بعد . وهكذا
ألقيت جانباً بجهازى الكهربائي ، حتى قبل أن يفسر « موبويس » الأمر ببيان أن
نجاح العلاج الكهربائي في الأمراض العصبية (إن كان ثمة نجاح) إنما يرجع إلى
إيحاء الطبيب .

وأما التنويم فكان أحسن حالاً من العلاج الكهربائي . فقد اتفق حين كنت
لأزال طالباً أن حضرت عرضاً عاماً قام به هانسن المنوم ، وقد لاحظت أن أحد
الأشخاص الذين نُوّموا استحال لونه إلى صفرة الموت عند حدوث نوبة التخشب
وظل على هذه الحال حتى انتهت النوبة . من ذلك أيقنت يقيناً راسخاً بصحة ظواهر
التنويم . وما لبث السند العلمي أن وافي هذه النظرة على يد « هايدنهين » ؛ ولكن
ذلك لم يمنع أساتذة الطب النفسي أن يظلوا زمناً طويلاً يعلنون أن التنويم فضلاً

عن كونه غشاً ، فهو خطر أيضاً ، وأن يقفوا من المنومين موقف الازدراء . وكنت شاهدت التنويم في باريس يستخدم كثيراً كوسيلة لإحداث أعراض في المرضى ثم إلزالتها ثانية . ثم يوافينا خبر ظهور مدرسة في نانسي (بفرنسا) أحرزت نجاحاً شاملاً رائعاً في الاستفادة من الإيحاء بواسطة التنويم أو بدون التنويم ، لأغراض علاجية . وهكذا كتب للإيحاء التنويمى أن يصبح أداة الرئيسية في عملي في الأعوام الأولى من اشتغالي بالطب ، إلى جانب طرق العلاج النفسى الاتفاقية غير المنتظمة .

ومن ثم تخلت عن علاج الأمراض العصبية العضوية ؛ ولم يكن في ذلك خسارة تذكر . ذلك أن علاج مثل تلك الأمراض لم يكن يبشر بالتوفيق ، ومن ناحية أخرى فلم يكن عدد من يرد على العيادة الخاصة بطبيب في مدينة كبرى من أمثال هؤلاء المرضى شيئاً يذكر بالقياس إلى جموع العصبيين ، فضلاً عن أن هروغ هؤلاء العصبيين من طبيب إلى آخر دون حل لمتاعبهم يجعل عددهم يبدو أكثر تزايداً . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كان العلاج بالتنويم مغرياً . فلأول مرة أصبح المرء يشعر أنه تغلب على عجزه ؛ وكان إطرء عظيمًا أن ينعم المرء بشهرة صانع المعجزات . ولم أفطن لمعائب هذه الطريقة إلا فيما بعد . أما في ذلك الحين فلم أكن أعيب عليها غير أمرين : الأول ، أنى لم أكن أفصح في تنويم كل مريض ، والثانى ، أنى لم أكن أستطيع أن أجعل بعض مرضاى في حالة من التنويم بالعمق الذى كنت أبغى . وفى سبيل استكمال قدرتى على التنويم قمت برحلة إلى نانسي فى صيف عام ١٨٨٩ وهناك قضيت عدة أسابيع ، حيث رأيت ذلك المشهد المؤثر ، مشهد ليوبولت المسن عاملاً فى غمار الفقراء من نساء وأطفال الطبقات العاملة ، وحضرت تجارب « برنهم » المدهشة على مرضاه من نزلاء المستشفى ؛ وأحسست إحساساً عميقاً أنه لا بد أن تكون هناك عمليات نفسية قوية تبقى برغم قوتها خافية عن شعور الناس ، وكنت قد أقنعت إحدى مرضاى أن تصحبني إلى نانسي كى استريد علماً . وكانت هذه السيدة هستيرية ذات

مواهب ممتازة ، ومن أصل عريق ، وكان قد عهد إلى بها بعد أن حار الكل في أمرها . وبالتأثير التنويري أمكنني أن أجعلها تقضى حياة محتملة ، وكان في وسعي دائماً أن انتشلها كلما عادت إلى تعاسة حالتها . ولكنها كانت لا تلبث أن تنتكس ، فأنسب هذا الانتكاس جهلاً إلى كون التنويم لم يبلغ عمق مرحلة الجولان النومي المصحوبة بالنسيان . حاول برنهايم حينئذ عدة مرات أن يحقق ذلك ، ولكنه أخفق بدوره ، واعترف لي بصراحة أن نجاحه العظيم في العلاج باستخدام الإيحاء لم يحرزه إلا بالمستشفى لا مع مرضاه الخصوصيين . وجرت بيني وبينه مناقشات مفيدة ، وأخذت على عاتقي أن أترجم إلى الألمانية كتابيه عن الإيحاء ونتائجه العلاجية.

وفي الفترة التي انقضت من سنة ١٨١٦ إلى ١٨٩١ كان عملي العلمي ضئيلاً ولم أنشر غير النزر اليسير . فقد كنت مشغولاً بتكوين نفسي في مهنتي الجديدة وبدعم معيشتي المادية فضلاً عن معيشة أسرة آخذة في الزيادة السريعة . وفي عام ١٨٩١ ظهر أول بحوثي عن شلل الأطفال المخي ، كتبته بالاشتراك مع صديقي ومساعدى ، الدكتور أوسكار راي . وفي نفس العام تلقيت دعوة للمساهمة في دائرة معارف طبية ، فدفعتني ذلك إلى دراسة نظرية الأفازيا ، وكان المعول فيها في ذلك الحين على آراء قرنيلك وليشتايم تلك التي كانت تحصر اهتمامها في مسألة تعيين المراكز المخية . وكانت ثمرة ذلك البحث كتاباً صغيراً نقدياً نظرياً ، « في نظرية الأفازيا » . ولكن يتعين على الآن أن أبين كيف اتفق أن عاد البحث العلمي فأضحى شغل حياتي الشاغل مرة أخرى .

الفصل الثاني

يتعين علىّ تعقيباً على ما ذكرته منذ حين ، أن أبين أنى كنت منذ البداية أستخدم التنويم على نحو آخر ، غير الإيحاء التنويمى . فقد كنت أستخدمه فى الاستفسار من المريض عن منشأ أعراضه المرضية الأمر الذى لم يكن بوسعه فى يقظته أن يفصح عنه إلا على نحو غاية فى النقص أو لا يسعه ذلك إطلاقاً . وكانت هذه الطريقة تبدو أجدى من مجرد الأوامر والنواهي الإيحائية ، وفضلاً عن ذلك فقد كان فيها إرضاء لفضول الطبيب ، الذى كان من حقه مع هذا كله أن يعلم شيئاً عن أصل الظاهرة التى يسعى إلى إزالتها بطريقة الإيحاء . وفيما يلى أبين كيف اهتديت إلى تلك الطريقة الأخرى . بينما كنت لأزال أشتغل بمعمل « بروك » تعارفت بالدكتور « جوزيف بروير » ، وكان من أطباء الأسر المرقومين فى « فيينا » ، وكان له فضلاً عن ذلك ماض علمى ، إذ كان قد أنتج بحثاً عدة ذات قيمة دائمة عن فسيولوجيا التنفس وعن عضو الاتزان . كان « بروير » ذا ذكاء وقاد ، وكان يكبرنى بأربعة عشر عاماً . وما لبثت صلاتنا أن ازدادت توثقاً ، وأصبح لى فى ظروفى القاسية الصديق والعون . ودأبنا منذ ذلك الحين على الاشتراك سوياً فى جميع مهامنا العلمية . وطبيعى فى صلة هذا شأنها أن يكون الكسب نصيبى . وقد كلفنى التطور الذى طرأ على التحليل النفسى فيما بعد أن أفقد صداقته . ولم يكن من الهين علىّ أن أدفع مثل ذلك الثمن ، ولكن لم يكن من ذلك مفرّ .

وكان « بروير » قبل ذهابى إلى باريس قد حدثنى بشأن حالة هستيريا ، كان يعالجها بين عامى ١٨٨٠ ، ١٨٨٢ على نحو فريد أتاح له أن ينفذ نفاذاً عميقاً فى الكشف عن علل الأعراض الهستيرية وعن دلالتها . حدث ذلك إذن فى وقت كانت لا تزال فيه بحوث « چانية » طىّ المستقبل . قرأ علىّ غير مرة أطرافاً

من تاريخ الحالة ، جعلتني أحس أنها بلغت في فهم العصاب ما لم يبلغه أى فحص سابق . فعزمت على أن أطلع « شاركو » على هذه الكشف عند وصولي إلى باريس ، وقد فعلت ذلك . ولكن الرجل العظيم لم يبد أى اهتمام بتلخيصي الأول للموضوع ، ولذلك لم أعد إليه بعد ذلك وأسقطته من حسابي .

وعند ما عدت إلى قيينا رجعت مرة أخرى إلى تقرير « بروير » عن الحالة واستزدت منه علماً بها . كانت المريضة فتاة ذات تربية ومواهب فذة ، أصابها المرض بينما كانت تقوم بتمريض والدها ، الذي كانت تخلص له الحب . عند ما اضطلع « بروير » بمباشرة حالتها كانت تبدو عليها ألوان عدة من الأعراض : شلل مصحوب بتقلصات عضلية ، وأنواع من التعطيل ، وحالات خلط ذهني . وقد سنحت لطبيبها ملاحظة بينت له أنه يمكن أن تتخلص من حالات الخلط في الشعور هذه إن حملناها على أن تتحدث عما كان يملكها إذ ذاك من أخيلة انفعالية . وبهذا الكشف ، وصل « بروير » إلى طريقة للعلاج جديدة . فكان ينومها تنويماً عميقاً ، ويجعلها في كل مرة تنبئه عما تضيق به . فلما أفلح في القضاء على الخلط الاكتثابي ، عمد إلى الطريقة نفسها في إزالة أنواع التعطيل واضطرابات الجسمية . ولم تكن الفتاة حال يقظتها بأكثر من غيرها من المرضى قدرة على أن تبين كيف نشأت الأعراض ، ولم تكن تستطيع أن تبين أية صلة بين أعراضها هذه وبين أية خبرة في حياتها . ولكنها كانت في حالة التنويم تكشف فوراً عن الصلة المفقودة ، وتبين أن مرد جميع أعراضها إلى حوادث أثرت في نفسها تأثيراً عميقاً أثناء قيامها بتمريض والدها ، أى أن أعراضها كانت ذات معنى وكانت بمثابة بقايا أو ذكريات تخلفت عن تلك المواقف الوجدانية . وقد تبين أن الأمر كان يحدث عادة على النحو التالي :

كان يساورها وهي إلى جوار فراش أبيها المريض فكرة أو دافع لا بد لها أن تقمعه ، ثم يظهر العَرَض محله فيما بعد بديلاً منه . على أن العَرَض لم يكن عادة ينجم عن موقف واحد من تلك المواقف الأليمة ، بل عن تراكم عدد من

المواقف المماثلة . وعند ما كانت المريضة تستعيد تخيلاً أثناء التنويم موقفاً من هذا القبيل وتنجز في الخيال فعلاً نفسياً كانت قمعته ، مع الإفصاح عن الانفعال ، كان العرض يزول إلى غير رجعة . وبهذه الطريقة نجح « بروير » بعد جهود طويلة شاقة في شفاء مريضته من جميع أعراضها .

برئت المريضة ، وظلت تتمتع بالصحة ، بل أصبح في مقدورها أن تزاوّل أعمالاً مجدية . ولكن ستاراً من الغموض ظل مسدلاً على المرحلة الأخيرة من هذا العلاج التنويمي ، ستاراً لم يرفعه « بروير » لي قط ؛ ولم أستطع أن أفهم لماذا ظل طاوياً معرفة لا تقدر بثمن ، وكان حريّاً به أن يزيد بها ثروة العلم . على أن المشكلة الأولى كانت : أيمكن التعميم مما وجدته لدى حالة مفردة ؟ لقد بدت لي الأمور التي كشفها جوهريّة حتى لم أستطع أن أتصور أن تخلو منها أية حالة من حالات الهستيريا ما دام قد ثبت حدوثها في حالة واحدة . على أن المسألة لم يكن ليحسمها غير التجربة . ولذلك شرعت أعيد مع مرضاي البحوث التي أجراها « بروير » ، ولم أعد أشتغل بعد ذلك بشيء آخر ، خاصة بعد أن تعلمت من زيارتي إلى « برنهايم » في عام ١٨٨٩ قصور الإيحاء التنويمي ، وبعد عدة أعوام رأيت فيها كشفه تؤيدها كل حالة من حالات الهستيريا نالها ذلك العلاج ، وبعد أن جمعت قدراً لا بأس به من المشاهدات الشبيهة بمشاهداته ، عرضت عليه أن نصدر مؤلفاً مشتركاً . وقد اعترض بشدة في بادئ الأمر ، غير أنه وافق في النهاية ، خاصة وأن « چانيه » بدأ في هذه الأثناء ينشر بحوثاً سبقته إلى بعض نتائجه ، مثل ردّ الأعراض الهستيرية إلى أحداث في حياة المريض ، وإزالتها عن طريق استعادتها بالتنويم على النحو الذي نشأت به . وفي عام ١٨٩٣ نشرنا بحثاً تمهيدياً عن الميكانيزم النفسى للظواهر الهستيرية ^(١) وأتبعناه في عام ١٨٩٥ بكتابنا "دراسات في الهستيريا" .

إن كان البيان الذي أوردته حتى الآن يوعز إلى القارئ بأن كتاب

(الدراسات في الهستيريا) بكل عناصره الرئيسية إنما هو نتاج عقل « بروير » ،
 فذلك عين ما ناديت به دائماً وما انتويت ترديده في هذا المقام . ففيما يختص
 بالنظرية التي عالجها الكتاب ، فقد أسهمت في وضعها ، ولكن بقسط لم يعد
 سبيل اليوم إلى تعيينه . كان التواضع طابع هذه النظرية ، فما كادت تتجاوز
 الوصف المباشر للمشاهدات : لم تكن تطمح أن تتعمق طبيعة الهستيريا ،
 وإنما توضح فحسب منشأ الأعراض . ومن ثمة أبرزت أهمية الحياة الانفعالية
 وضرورة التمييز في الأفعال النفسية بين ما هو لا شعوري وما هو شعوري (أو
 بالأحرى ما يمكن أن يصبح شعورياً) ؛ كما أنها استحدثت عاملاً دينامياً^(١) ،
 مؤداه أن العرض ينشأ عن حجز انفعال ما ، وعاملاً اقتصادياً^(٢) ، مؤداه أن ذلك
 العرض نفسه نتيجة أو مكافئ لقدر من الطاقة حول إلى هذا المظهر في حين أنه
 ينصرف عادة على نحو آخر . وسميت هذه العملية الأخيرة تحويلاً . دعا
 « بروير » طريقتنا هذه طريقة التطهير ؛ وبيان غرضها العلاجي : حيث أن
 الانفعال المتراكم المستخدم في إيجاد العرض ، قد اتخذ مسالك منحرفة احتبس
 فيها ، فلا بد من رده إلى مسلك سوى يجد فيه منصرفاً أو تفرغاً .

أسفرت طريقة التطهير عن نتائج عملية باهرة . أما عيوبها ، التي وضحت
 فيما بعد ، فهي عيوب العلاج بالتنويم بشتى صورته ، ولا يزال نفر من المشتغلين
 بالعلاج النفسي يقتصرون على طريقة التطهير كما فهمها « بروير » ، ويرضون
 عنها . وقد أبرز « سمل » قيمتها كطريقة علاجية مختصرة في علاجه عصاب
 الحرب في الجيش الألماني إبان الحرب الكبرى^(٣) . ولم تكن نظرية التطهير تشير
 إلى الحياة الجنسية . ومع أن العوامل الجنسية كانت تلعب دوراً معيناً في تاريخ
 الحالات التي أسهمت بها في كتاب الدراسات ، إلا أنها لم تكد تلق من الالتفات

(١) يقصد بالعامل الدينامي حالة تتدافع فيها القوى النفسية ؛ فهو مفهوم يبرز قوى
 الدفع والتشاحن في النفس . (المترجم)

(٢) يقصد بالعامل الاقتصادي تصوراً كياً للطاقة النفسية وتوزيعاً لهذه الطاقة بما يناسب
 مفتضى الحال . (المترجم)

(٣) الحرب الكبرى الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ . (المترجم)



فرويد مع زوجته وابنته أنا ، ١٨٩٩

أكثر مما لقيته الانفعالات الأخرى . كتب « بروير » عن الفتاة ، التي ذاعت شهرتها منذ ذلك الحين كأول مرضاه ، أن الجانب الجنسي لديها كان ناقصاً في نموه نقصاً غير مألوف . وقد كان من العسير التكهن من « كتاب الدراسات في الهستيريا » بما للجنسية من أهمية في تعليل العصاب .

أما المرحلة التالية ، أى الانتقال من التطهير إلى التحليل النفسى الحق ، فقد فصلت القول فيها مراراً بحيث يصعب على أن أتقدم بأى جديد ، والحادث الذى استهلت به هذه الفترة هو تنحى « بروير » عن عملنا المشترك ، الأمر الذى جعلنى المتصرف الوحيد فيما خلف من تراث . وبالرغم من أنه كان ثمة بيننا خلافات فى رأى منذ مرحلة مبكرة ، غير أنها لم تكن مدعاة لانفصالنا . إن مسألة متى تصبح عملية نفسية عاملاً مرضياً ، أى متى يمتنع عليها أن تجد منصرفاً سوياً ، كان « بروير » يؤثر أن ننحو فى تفسيرها منحىً فسيولوجياً : فقد كان يرى أن العمليات التى لم توفق إلى مصير سوى إنما نشأت إبان أحوال نفسية غير عادية شبيهة بحالة التنويم .

ولكن ذلك أثار مشكلة أخرى ، هى ما أصل تلك الأحوال الشبيهة بالتنويم . أما أنا فكنت أميل إلى الاعتقاد بوجود قوى تتفاعل فيما بينها ، ونوايا وميول تعمل على نحو ما يحدث فى الحياة العادية . وهكذا تتعارض نظريته « الهستيريا التنويمية » مع نظرتى « العصاب الدفاعى » . ولكن اختلافات هذا شأنها ما كانت لتبعده عن العمل معى لو لم تتدخل عوامل أخرى . ولا شك أن أحد هذه العوامل أن عمله كطبيب تقبل عليه الأسر كان يضيع من وقته قدراً كبيراً ، وأنه لم يكن يسعه مثلى أن يكرّس كل طاقته لمهمة التطهير . هذا فضلاً عن الأثر السيئ الذى أحدثته فى نفسه ما قوبل به كتابنا إن فى فيينا أو فى ألمانيا . فلم تكن ثقته بنفسه وصلابته فى رأى فى قوة سائر صفاته العقلية . مثال ذلك ، أنه عند ما أعرب « شترومبل » عن استنكاره الشديد لكتاب الدراسات سخرت مما ينطوى عليه ذلك النقد من قصور فى الفهم ، فى حين أن « بروير » شعر بإهانة

وثبط ذلك من همته . ولكن أهم ما حدا به إلى تصميمه ، هو أنى اتخذت في بحثي الخاص بعد ذلك اتجاهًا استحال عليه أن يتقبله .

ظلت النظرية التي حاولنا صياغتها في الدراسات ، كما أسلفت ، جد ناقصة ؛ وبخاصة وأننا لم نكد نمسّ مشكلة تعليل المرض ، أى مشكلة التربة التي تتكون فيها العمليات المرضية . وقد تبين لي من خبرتي ، وقد أخذت تزداد تزايداً سريعاً أن ما كان يفتعل خلف مظاهر العصاب ليس اضطراباً انفعالياً أيّاً كان ، إنما هو دائماً اضطراب ذو طابع جنسى ، سواء كان صراعاً جنسياً حالياً أو نتيجة خبرات جنسية باكرة . ولم أكن مهياً لهذه النتيجة فلم يكن لتكهناي شأن بها ، إذ كنت شرعت في فحصي للعصابيين خالي الذهن تماماً . وبينما أنا أكتب (تاريخ حركة التحليل النفسى) في سنة ١٩١٤ ، خطر بذهنى بعض ما ذكره لي « بروير » ، و « شاركو » ، و « شروباك » ، من ملاحظات كانت جديرة بأن تفضى بي إلى هذا الكشف قبل ذلك . ولكنى لم أكن عندما استمعت إليها أتبين ما يقصده أولئك الثقات ؛ والحق أنهم أطلعوني على أكثر مما كانوا يتبينون هم أنفسهم أو مما كان بوسعهم أن ينافحوا عنه . بقى ما سمعته منهم ساكناً سلبياً في دخيلة نفسى ، حتى أتيج لتجاربى عن التطهير أن تبرزها كما لو كانت كشفاً مبتكراً . بل لم أكن أتبين في ذلك الحين أنى بردى الهستيريا إلى الدوافع الجنسية إنما كنت أعود إلى أولى بدايات الطب وتأثر تفكير أفلاطون^(١) . ولم أتبين ذلك إلا فيما بعد من مقال كتبه « هاقلوك إليس » .

وبفضل كشفى الغريب اتخذت خطوة خطيرة الأثر ، إذ تجاوزت مجال الهستيريا وشرعت في فحص الحياة الجنسية لدى المرضى بما يسمى النيوراستينيا الذين كانوا يفدون على عيادتي زرافات . حقاً إن تلك التجربة أصابت سمعتي

(١) فقد ورد في إحدى محاورات أفلاطون « المائدة » حديث على لسان الطبيب إريكسيماخوس يقرر فيه أن الطب هو العلم بألوان الحب والرغبات الجسدية . (المترجم)

كطبيب ، إلا أنني أفدت بينات لا تزال إلى اليوم ، بعد مضي ثلاثين عاماً ، دون أن تفقد شيئاً من قوتها .

وقد كان على المرء أن يُغالب كثيراً من المغالطة والمراءاة ، وما أن يتم له ذلك حتى يتبين أن جميع هؤلاء المرضى يسيئون استخدام الوظيفة الجنسية على نحو خطر ونظراً لانتشار كل من الاستخدام السيئ للوظيفة الجنسية والنيوراستينيا فلم تكن كثرة التقائهما سوية لتدل على شيء . على أن الأمر لم يقف عند مجرد هذه الملاحظة الساذجة . تمكنت نتيجة التدقيق في الملاحظة من أن أميز في غمار الصور الإكلينيكية المبهمة التي يطلق عليها اسم النيوراستينيا ضربين مختلفين اختلافاً جوهرياً ، ضربين قد يبدوان في حالة امتزاج ، ومع ذلك يمكن ملاحظة كل منهما في صورته الخالصة . الظاهرة المركزية في أحد الضربين نوبة القلق مع نظائرها ^(١) وصورها الأولى والأعراض البديلة المزمنة ؛ وقد أطلقتُ عليها من ثمة عصاب القلق ، وقصرت لفظ نيوراستينيا على الضرب الآخر . وهكذا تيسر لي أن أقرر أن لكل من هذين الضربين شكلاً مغايراً من الشذوذ في الحياة الجنسية هو علة المرض ، وهو في الأول جماع ناقص ^(٢) ، أو تهيج دون تصريح وامتناع جنسي ، وفي الثاني إفراط في العادة السرية وتجاوز الحد في الاستحلام الليلي . وقد أمكن في قليل من الحالات المفيدة فائدة خاصة والتي أسفرت عن تحويل عجيب في الصورة الإكلينيكية من ضرب إلى آخر ، إثبات أن ذلك التحول أساسه تحول مقابل في السلوك الجنسي . فإذا استطعنا أن نقضي على النشاط الجنسي الفاسد فنستبدل به نشاطاً جنسياً سويةً ، تحسنت الحالة تحسناً بيناً .

وهكذا تأديت إلى اعتبار العصاب دون استثناء اضطرابات للوظيفة الجنسية ، وما يُدعى العصاب الفعلي هو المظهر المباشر لحالة التسمم الناجمة من هذه

(١) نظائر القلق اضطرابات فسيولوجية تصاحبه وقد تظهر وحدها ، مثل ازدياد سرعة ضربات القلب وسرعة التنفس أو ضيقه وتصبب العرق وما إلى ذلك . (المترجم)

(٢) إنزال في الخارج . (المترجم)

الاضطرابات ، في حين أن العصاب النفسى هو مظهرها النفسى . وقد طابت هذه النتيجة لضميرى العلمى ، وقد تمنيت أن أكون قد ملأت بذلك فراغاً فى العلم الطبى ، فلم يكن ذلك الطب يلتفت فى بحثه لهذه الوظيفة البيولوجية الهامة [الوظيفة الجنسية] إلا إلى الأدوية التى تنجم عن العدوى أو عن الإصابات التشريحية البينة . وفضلاً عن ذلك فقد كان يدعم الوجه الطبى من المسألة كون الحياة الجنسية ليست شيئاً نفسياً صرفاً ، إنما لها جانبها الجسمى أيضاً ويمكن أن نعزو إليها عمليات كيميائية معينة ، وأن نعزو التهيج الجهنسى إلى وجود بعض المواد الخاصة برغم كونها مجهولة إلى الآن . ولا شك أن فى ذلك ما يفسر كون العصاب التلقائى الحق لا يشابه سائر الأمراض بقدر ما يشابه ظواهر التسمم والامتناع ، التى تنجم عن تعاطى بعض المواد السامة أو الإقلاع عنها ، أو بقدر ما يشابه جحوظ العين فى مرض « باسدو » الذى ينشأ — كما نعلم — عن ازدياد نشاط الغدة الدرقية .

ومنذ ذلك الحين لم تُتح لى العودة إلى دراسة العصاب (الفعلى) ؛ كما لم يواصل غيرى هذا الجزء من عملى . عند ما أنظر اليوم إلى تلك الكشوف الأولى ، تبدو هيكلاً تخطيطياً ساذجاً لموضوع لا شك أنه أشد تعقيداً من ذلك . ولكنها فى جملتها لا تزال صحيحة فى اعتقادى . وكم كنت أودّ لو أتيح لى بعد ذلك أن أقوم بدراسة تحليلية نفسية لبعض المصابين بالنيوراستنيا البسيطة من الشباب ، ولكن — لسوء الطالع — لم تسنح لى تلك الفرصة . وأريد ، حتى لا يُساء فهمى ، أن أقرر أننى لا أنكر وجود الصراع النفسى والعقد العصابية فى النيوراستنيا . وكل ما هنالك أننى أرى أن أعراض أولئك المرضى لا تنشأ عن سبب نفسى كما أنها لا تزول بالتحليل ، ولكن لا بد أن تعتبر تسمماً نجم مباشرة عن اختلال فى العمليات الكيميائية الجنسية .

أما وقد بلغت هذه النتائج الخاصة بالدور الذى تلعبه العوامل الجنسية فى تفسير العصاب ، فقد ألقيت فى الأعوام التى أعقبت نشر « الدراسات » بضع



چوزيف بروير ، ١٨٩٧ في سن الخامسة والخمسين

بحوث عن الموضوع أمام جمعيات طبية متعددة ، دون أن أحظى بغير الارتياب والإنكار . ولم يأل « بروير » جهداً في تأييدي بنفوذه الشخصي ردهاً من الزمن ولكن دون جدوى ، ثم تبين لي بعد ذلك في وضوح أنه ينفر بدوره من الإقرار بالتفسير الجنسي للعصاب . لقد كان بوسعه أن يسحقني أو على الأقل أن يخذلني لو أنه أشار إلى مريضته الأولى التي لم يكن يبدو أن العوامل الجنسية في حالتها تلعب دوراً ما . ولكنه لم يفعل ذلك أبداً ، ولم أستطع أن أفهم السر في ذلك حتى وصلت إلى تفسير الحالة تفسيراً صحيحاً وإلى أن أحس من بعض ملاحظاته ، كيف انتهى علاجه لها . فما كادت مهمة التطهير تكتمل حتى اعتري الفتاة فجأة حالة « حب منقول » ، فلم يربط ذلك بمرضها ، ومن ثمة تخلى عن العمل ضيقاً به . ومن الجلي أنه كان ضيقاً بما يذكره بهذا الطارئ الذي أدى إلى فشله . وظل شعوره نحوي متراوحاً زمنياً بين التقدير وبين النقد المر ؛ ثم عرضت صعوبات ، كما هو الحال دائماً في كل موقف متوتر أدت إلى افتراقنا .

وثمة نتيجة أخرى لاضطلاعي بدراسة الاضطرابات العصبية عامة ، تلك هي أنني عدلتُ طريقة التطهير . فقد أقلعت عن التنويم وحاولت الاستعاضة عنه بطريقة أخرى ، رغبة مني في ألا أقصر على علاج الحالات المستيرية ، فضلاً عن أن تزايد خبرتي آثار في ذهني اثنين من الشكوك الخطيرة بخصوص استخدام التنويم حتى ولو كان لمجرد التطهير . أولهما أنه حتى أنجع النتائج كانت عرضة إلى أن تنمحي فجأة لوساءت علاقتي الشخصية بالمريض . حقاً إن الصلح كان قميناً أن يعيد الأمور إلى نصابها ، ولكن هذا ينهض دليلاً على أن العلاقة الوجدانية بين الطبيب والمريض هي قطعاً أقوى أثراً من عملية التطهير برممتها ، وهذا العامل بالذات هو ما كان يفلت من زمامنا . حتى عرض لي ذات يوم حادث كشف لي في أبسط صورة ما كنت أشتبّه في وجوده منذ زمن بعيد . ذلك أن مريضة من أكثر مرضاي امتثالاً ، مريضة أدّى التنويم في حالتها إلى أروع النتائج ، وكنت أعالجها بردّ نوبات الألم إلى مصادرها القديمة ، استيقظت ذات

مرة ، وطوقت عنقي بذراعيها . وعلى غير توقع دخل خادم فجنبنا نقاشاً مؤلماً ، ولكن منذ ذلك الحين شعر كلانا بضرورة وضع حد للعلاج بالتنويم ، وقد كنت من التواضع بحيث لم أعز هذا الحادث إلى أن لي جاذبية شخصية جارفة ، وإنما شعرت أنني أدركت طبيعة العنصر الخفى الذى كان يعمل فيما وراء التنويم . ولم يكن بدّ كى نستبعده أو على الأقل كى نعرله من أن نطلع عن التنويم .

بيد أن التنويم كان عوناً كبيراً فى العلاج بالتطهير ، بإفساحه مجال الوعى لدى المريض وبما يمكن له من معرفة لا تتيسر له فى يقظته . ولم يكن من اليسير أن نجد عن التنويم عوضاً . وبينما أنا فى هذه الحيرة وافتنى ذكرى تجربة شهادتها إبان وجودى عند « برنهايم » .

عند ما كان الشخص يستيقظ من حالة الجولان النوى ، كان يبدو وقد فقد كل ذكرى لما حدث أثناءها . ولكن « برنهايم » كان يعتقد أن الذكرى مع ذلك كانت موجودة ؛ فإن ألحّ على المريض أن يتذكر ، وأكد له أنه يعرف كل شيء وليس عليه إلا أن يذكر ما يعرف ، وإن وضع إزاء ذلك يده على جبهة الشخص ، فإن الذكريات المنسية كانت تعود فعلاً ، فى تعثر أولاً ثم فى انسياب ووضوح تام آخر الأمر . عقدت عزمى على أن أتبع نفس الطريقة . قلت لنفسى إن مرضاى "يعرفون" لا محالة كل ما لم يكن يتوصلون إليه إلا عن طريق التنويم ، وفكرت أن التأكيد والتشجيع من جانبي مؤيداً أحياناً بلمسات يدي ربما كانت لها القدرة على إقحام الوقائع والصلات المنسية إلى الشعور . حقاً كان ذلك يبدو عملاً أكثر إجهاداً من التنويم ، بيد أنه قد يفيدنا فائدة كبيرة . وهكذا تركت التنويم ، وإن كنت أبقيت على عادتي فى أن أدع المريض يستلقى على كنبه بينما أجلس أنا خلفه ، فأراه دون أن يرانى .

الفصل الثالث

تحقق ما كنت أتوقع ؛ وتحررت من التنويم . ولكن مع ما طرأ على الطريقة من تغيير ، فإن عملية التطهير أخذت شكلاً جديداً ، كان التنويم يُخفى عن النظر قوى متفاعلة أضحت الآن بادية للعيان ودعم فهمها نظريتي بأساس مكين .

كيف تسنى للمرضى أن ينسوا مثل ذلك القدر الكبير من حقائق حياتهم خارجية وداخلية ثم يستعيدونها مع ذلك باستخدام طريقة فنية معينة ؟ أمدتنا الملاحظة بإجابة شافية على تلك الأسئلة : كل شيء عفا عليه النسيان كان مؤلماً على نحو ما ، كان مُفزعاً أو مستقبّحاً أو مخزياً في عرف المريض ذاته . فوضح لنا أن ذلك هو بالذات ما أفضى إلى نسيان تلك الأمور أى إلى عدم بقائها شعورية . فإن أردنا أن نصير برغم ذلك شعورية مرة أخرى ، كان حتماً علينا أن نتغلب على شيء يناهضنا لدى المريض ؛ الأمر الذي كان يفرض علينا أن نبذل جهداً معيناً من جانبنا حتى ندافعه ونغلبه . أما المجهود الذي يتعين على الطبيب أن يبذله فقد كان يختلف مقداره من حالة إلى أخرى ، إذ يتناسب تناسباً طردياً مع صعوبة تذكر المريض للشيء المنسى . ومن الواضح أن مقدار الجهد من قبيل الطبيب كان مقياساً للمقاومة التي تبذل من جانب المريض . ولم يتبق إلا أن أصوغ ما لاحظته في عبارات ، وبذلك وصلت إلى نظريتي في الكبت . حيثئذ أصبح من اليسير أن نتصور كيف نشأ المرض . لنأت بمثال بسيط ، إذا نشأ دافع ما في نفس المرء ولكن اعترضته ميل قوية توقعنا حدوث الصراع النفسى على النحو التالى : ذلك أن القوتين الديناميتين – ولنطلق عليهما مؤقتاً ”الغريزة” و ”المقاومة” – ستصارع إحداهما الأخرى فترة من الزمن في ضوء

الشعور الكامل ، حتى تُنحَى الغريزة وتستبعد منها شحنتها من الطاقة^(١) ، ذلك هو الحل السوى . بيد أن الصراع فى العصاب (لأسباب كانت لا تزال مجهولة آنذاك) يفضى إلى نتيجة مغايرة . يتقهقر "الأنا" بعد أول صدمة يتلقاها فى صراعه مع الدافع المحظور ؛ فيمنع الدافع من أن يصبح شعورياً ويحول بينه وبين الانصراف الفعلى المباشر ، ولكن الدافع يبقى مع ذلك محتفظاً بكامل شحنته من الطاقة . أطلقت على هذه العملية "الكبت" ؛ وكان ذلك ابتكاراً لم يعرف له مثيل من قبل فى الحياة النفسية . وواضح أنها كانت حيلة دفاعية بدائية هى أشبه بشيء بمحاولة الهروب ، فهى شكل أولى لما ينشأ بعد ذلك من حل سوى هو القمع بتحكيم العقل .

وينتج عن القيام بالكبت عواقب أخرى : فى المقام الأول يتعين على الأنا أن يحتذى من خطر دائم لهجوم لا يفتأ يشنه الدافع المكبوت ، الأمر الذى يقتضى منه أن يبذل جهداً مستمراً ، أى أن يطلق دوماً شحنة مضادة ، وبذلك تنقص قوته . ومن الناحية الأخرى فإن الدافع المكبوت الذى أصبح لا شعورياً بوسعه أن يجد منصراً وإرضاء بديلاً خلال طرق ملتوية وبذلك كأن الكبت لم يحقق الغرض منه . فى حالة الهستيريا التحولية^(٢) يفضى الطريق الملتوى إلى أعصاب الجسم ؛ إذ يقتحم الدافع المكبوت إحدى المناطق محدثاً بذلك الأعراض . ومن ثمة فالأعراض نتيجة توفيق بين أمرين ، إذ هى بمثابة إرضاء بديل ولكنه إرضاء شائه حاد عن هدفه بفعل المقاومة التى يبذلها الأنا .

أصبحت نظرية الكبت حجر الأساس فى فهمنا للعصاب . وأصبح لازماً علينا من ثمة أن نغير نظرتنا لمهمة العلاج ، فلم يعد غرض العلاج أن (يفرغ) انفعالات اندفع فى طرق خاطئة ، بل أن يكشف عن عمليات الكبت ويستعيض عنها بعمليات حكم عقلية قد تنتهى إما بقبول ما نبذ من قبل أو بإدانتة . وقد

(١) وفقاً للتصور الاقتصادى كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى هامش ٢ ص ٣٠ . (المترجم)

(٢) هى الهستيريا التى يتحول فيها الصراع النفسى إلى أعراض جسمية مثل الشلل الهستيرى . (المترجم)

أعربت عن اتخاذى لهذا الاتجاه الحديد بإقلاعى عن تسمية طريقتى فى الفحص والعلاج تطهيراً وسميتها بدلاً من ذلك التحليل النفسى .

ويمكننا أن نعتبر الكبت مركزاً تتجمع حوله جميع عناصر نظرية التحليل النفسى . ولكن لدى ملاحظة جدلية أحب أن أביها قبل ذلك . كان « چانيه » يرى أن المرأة المستيرية مخلوق تعيس ، أعجزها الضعف الجبلى عن تحقيق التألف بين الأفعال العقلية ، وأنها لهذا السبب كانت ضحية التفكك العقلى وضيق مجال الشعور . فى حين أن نتائج البحوث التحليلية النفسية بينت أن هذه الظواهر إنما نتجت عن عوامل دينامية — عوامل الصراع النفسى والكبت — ويبدو لى أن هذه التفرقة هى من الأهمية بحيث تكفى لوضع حدٍّ للزعم بأن كل ما له قيمة فى التحليل النفسى مقتبس من آراء « پيرچانيه » . ولا بد أن القارئ قد علم مما عرضته أن التحليل النفسى من الناحية التاريخية مستقل تماماً عن كشف « چانيه » ، فضلاً عن أن مضمونه يتعارض معها ويتجاوزها ، فما كانت بحوث « چانيه » لتتطوى على شىء مما أكسب التحليل النفسى أهميته تلك للعلوم النفسية وجعله يظفر بمثل ذلك الاهتمام العالمى . لقد كنت دائماً أكنّ احتراماً لچانيه ، إذ كانت كشفه تطابق إلى حد كبير كشف « بروير » ، التى تمت قبل الأولى وإن كانت نُشرت بعدها . ولكن فيما بعد عند ما أصبح التحليل النفسى موضوعاً للنقاش فى فرنسا ، خرج علينا « چانيه » بالمساءة ، وكشف عن جهله بالحقائق ، واستخدم حججاً مستهجنة . وأخيراً سقط فى نظرى ، وقضى على قيمة بحوثه الخاصة عند ما صرح أنه إذا كان يتحدث عن أفعال نفسية «لاشعورية» لم يكن يقصد بهذه الكلمة أكثر من تعبير مجازى .

ولكن دراسة عمليات الكبت المسببة للمرض وغير ذلك من الظواهر التى سندكرها فيما بعد حتمت على التحليل النفسى أن يأخذ مفهوم اللاشعور مأخذاً جدياً . اعتبر التحليل النفسى أن كل شىء نفسى هو فى المقام الأول لاشعورى ، أما الخاصية الشعورية فقد تظهر وقد لا تظهر . أثار هذا بطبيعة الحال إنكار

الفلاسفة ، إذ كانوا لا يفرقون بين ما هو « شعورى » وما هو « نفسى » ، واحتجوا بأنهم لا يستطيعون أن يعقلوا أن يكون ثمة (شىء نفسى لا شعورى) فى آن واحد . على أنه لم يسعنا إزاء هذا الضرب من تفكير الفلاسفة إلا الإهمال وعدم المبالاة . إن خبرتنا (التى حصلناها من حالات مرضية لم يكن للفلاسفة بها علم) التى أظهرت لنا أن ثمة دوافع عدة قوية لا سبيل إلى إدراكها إدراكاً مباشراً وإنما يستنتج وجودها شأن أى حقيقة فى العالم الخارجى — هذه الخبرة لا تدع مجالاً لرأى مخالف . ويمكننى الإشادة بهذه المناسبة إلى أن الأمر لا يبدو أن يتفهم المرء حياته النفسية على نحو ما يتفهم حياة غيره النفسية . فما كان المرء ليتردد فى أن يعزو إلى غيره من الناس عمليات نفسية على الرغم من عدم شعوره بها شعوراً مباشراً وأنه لا يستطيع إلا أن يستدل على وجودها من كلماتهم وأفعالهم . وما يصدق على الآخرين ينبغى أن يصدق أيضاً على الذات . فإذا حاول امرؤ أن يمضى بالاستدلال إلى أبعد من ذلك وانتهى منه إلى أن ما فى نفسه من عمليات مختبئة إنما ترجع إلى شعور آخر تواجهه فكرة ذلك الشعور الذى لا يعرف المرء منه شيئاً ، فكرة « شعور لا شعورى » — ولا تكاد هذه الفكرة تفضل فكرة « النفسى اللاشعورى » . هذا وإن ذهب امرؤ مذهب بعض الفلاسفة ، فيدخل فى حسابه الظواهر المرضية ، ولكنه يرى أن العمليات التى تستند إليها لا يصح أن تعتبر عمليات نفسية بل شبه نفسية ، لأفضى الخلاف فى الرأى إلى نقاش لفظى لا ثمر له ، ولكان الأصوب أن نحفظ بعبارة « نفسى لا شعورى » أما البحث فى كنه هذا اللاشعور فليس أصوب ولا أجدى من البحث القديم فى كنه الشعور .

قد يكون أصعب علينا أن نبين كيف تسنى للتحليل النفسى أن يقوم بتمييز آخر فى اللاشعور فيقسمه إلى ما قبل الشعور وما هو لاشعور بحق . ويكفى أن نذكر أنه بدا لى امرأ مشروعاً أن ألحق بالنظريات التى كانت تعبيراً مباشراً عن الخبرة فروضاً غرضها أن تعيننا على تفهم الوقائع ، فروضاً متعلقة

بأمور لا يمكن أن تخضع للملاحظة المباشرة . وليس هذا بدعاً فقد نهجت العلوم السابقة نفس النهج . إن تقسيم اللاشعور بدوره يرتبط بمحاولة تصوير الجهاز النفسى بوصفه يأتلف من عدد من النظم الوظيفية نعبّر عن علاقاتها المتبادلة بعبارات مكانية ، دون أن يعنى ذلك بطبيعة الحال أنه تقسيم يستند إلى التشريح الفعلى للمخ . (أطلقت على هذه الطريقة فى تناول الموضوع الطريقة الطبوغرافية) . هذه الأفكار بمثابة بناء نظرى إضافى للتحليل النفسى ، يمكن لأى جانب منه أن يُترك أو يُعدّل دون خسارة أو أسف حالما نتبين عدم صلاحيته . ولكن لدينا الشئ الكثير مما هو أوثق صلة بالتجربة الواقعية ويجدر بنا أن نذكره .

وقد أسلفت أن فحصى للأسباب المباشرة والأصلية للعصاب هدانى إلى صراعات بين دوافع المريض الجنسية وبين مقاوماته لها . وحينما كنت أفتش عن المواقف المسببة للمرض ، حيث حدث كبت للجنسية وحيث يوجد مصادر الأعراض بوصفها بديلاً لما كبت ، وجدتني أتعرق حياة المريض الماضية حتى أبلغ أولى سنوات الطفولة . وهكذا تبين صدق ما أكدّه دائماً الشعراء والعارفون بالطبيعة الإنسانية : إن ذكريات هذه الفترة الأولى من الحياة ، برغم أن النسيان قد عفا على الجزء الأكبر منها ، إلا أنها تؤثر فى نموّ الفرد تأثيراً لا يزول ، وترسّى على وجه الخصوص الأساس لما قد يحدث بعد ذلك من اضطراب عصبى . ولكن حيث أن خبرات الطفولة هذه كانت تتعلق دائماً بالاستثارات الجنسية ومناهضة تلك الاستثارات فقد وجدتني أمام فكرة الجنسية الطفلية – وإذا بنا مرة أخرى بصدد اكتشاف ينقض اعتقاداً من أقوى المعتقدات الإنسانية السائدة . فقد كان الناس ينظرون إلى الطفولة على أنها ” بريئة ” وخالية من شهوات الجنس ، ولم يكن يتبادر إلى الأذهان أن الصراع ضد شيطان « اللذة الحسية » يبدأ قبل فترة البلوغ المضطربة . أما ما يبدر من الأطفال أحياناً من أفعال جنسية يستحيل تجاهلها فكانت تعتبر مجرد دلائل على الانحلال والفساد الباكر أو على نزوة نادرة من نزوات الطبيعة . قلّ من كشف التحليل النفسى ما لقي من المعارضة الشاملة

أو آثار ثورة من الاستنكار مثل التقرير بأن الوظيفة الجنسية تبدأ منذ مطلع الحياة وتكشف عن وجودها بعلامات هامة حتى في الطفولة . ومع ذلك فلا نعرف كشافاً غيره من كشوف التحليل النفسى أمكن التدليل على صحته على نحو أيسر وأتم من ذلك .

وعلىّ قبل أن أخوض فى مسألة الجنسية الطفلية أن أذكر خطأ ارتكبته ردحاً من الزمن ، وكان قميناً أن يفضى إلى القضاء على نتائج عملى بأسرها . ذلك أن معظم مرضاى كانوا تحت تأثير الطريقة الفنية التى كنت أتبعها فى ذلك الحين يستعيدون مشاهد فى طفولتهم كانوا فيها ضحية الإغواء الجنسي من شخص كبير . وكان دور المغوى فى حالة المرضى من النساء يُنسب فى أغلب الحالات إلى الأب . وقد صدّقتُ هذه الحكايات ، ومن ثمة اعتقدت أننى اكتشفت جذور العصاب فى خبرات الإغواء الجنسي هذه فى الطفولة . وقوّى اعتقادى بضع حالات استمرت فيها مثل تلك العلاقة بالأب أو العم أو بأخ أكبر حتى سن يؤثّق فيها بالذاكرة .

لو وَجَدَ القارئ نفسه مدفوعاً إلى السخرية إزاء سذاجتى تلك فلا يسعنى أن ألقى عليه كل اللوم ؛ ومع ذلك فقد أعذر نفسى إذ كنت فى ذلك الحين معطّلاً ملكتى النقدية حتى أحتفظ بموقف غير متحيز لآراء سائدة ، وأكون مستعدّاً للنظر فى أى أمر يجدّ من الأمور التى كانت تتكشف لى كل يوم . ومع ذلك ، فعند ما فطنت أخيراً إلى أن مشاهد الإغواء تلك لم تحدث قط ، وأنها لم تكن سوى أخيلة راودت المرضى ، أو ربما أقحمتُها أنا عليهم ، تملكتنى حيرة غامرة حيناً من الوقت . وهكذا لقيت ثقتى بطريقتى وبناتئجها لظمة قاسية ، فلا جدال فى أننى كنت قد وصلت إلى هذه المشاهد بطريقة فنية كنت أعتبرها سليمة ، ولا ريب أن موضوع هذه المشاهد يتصل بالأعراض التى بدأ فحصى عندها . وعندما استعدتُ تماسكى ، استطعت أن أستخلص النتائج الصحيحة من اكتشافى : أعنى ، أن الأعراض العصابية لم تكن ترجع مباشرة إلى حوادث



مكتب فرويد في منزله في فيينا . ويلاحظ أن المكتب زاخر بالعاديات المصرية .

فعلية بل إلى أخيلة تنطوى على رغبات ، وأن الوقائع النفسية طالما نحن بصدد العصاب أكثر أهمية من الوقائع الموضوعية ^(١) . ولا أعتقد الآن أنني أقحمت أخيلة الإغواء على مرضاى ، أى ”أوحيت“ بها إليهم . إنما كنت فى الحقيقة قد تعثرت للمرة الأولى ”بعقدة أوديب“ ، التى أضحت فيما بعد ذات أهمية بالغة ، ولكننى لم أتبينها إذ ذاك من خلال تلك الأخيلة . وفضلاً عن ذلك ، فإن الإغواء إبان الطفولة ظل محتفظاً بنصيب ، على ضآلته ، فى تعليل العصاب . ولكن اتضح أن مقتضى الإغواء كانوا فى غالب الأمر أطفالاً أكبر سنّاً .

يتبين إذن أن مشل غلطى كغلطة من يعتقد أن أسطورة ملوك روما الأقدمين (كما يقصها تيت ليف) إنما هى حقيقة تاريخية لا كما هى فى الواقع — أعنى رد فعل لذكرى أزمان وظروف خاملة ولعلها كانت أبعد ما تكون عن المجد . وعند ما أزيلت الغلطة فتح الطريق للدراسة حياة الأطفال الجنسية . وبذلك أمكن تطبيق التحليل النفسى فى مجال علمى آخر واستخدام موارده أداة لاكتشاف شطر جديد من المعرفة البيولوجية .

اهتديت إذن إلى أن الوظيفة الجنسية موجودة منذ بدء حياة الفرد ، برغم أنها تكون فى بادئ الأمر ممتزجة بالوظائف الحيوية الأخرى فلا تستقل عنها إلا فيما بعد ؛ ولا بدّ لها أن تمرّ خلال عملية نموّ طويلة معقدة قبل أن تصير إلى ما نعرفه لدى الراشد من حياة جنسية سوية . فهى تظهر أول ما تظهر نشاطاً لمجموعة بأسرها من المركّبات الغريزية ^(٢) . وهذه المركّبات الغريزية تعتمد على مناطق الجسم الشهوانية ! يبدو بعضها أزواجاً من الدوافع المتعارضة (كالسادية والمازوشية أو ميل المرء أن يشاهد ويشاهد) ؛ كل منها (من أزواج الدوافع) يعمل مستقلاً عن الغرائز الأخرى فى بحثه عن اللذة ، ويجد موضوعه أكثر ما

(١) يقصد بالواقع النفسى ما يلم بالنفس من خواطر سواء كانت من نسج الخيال أو كانت طابقة للوقائع الفعلية . (المترجم)

(٢) يقصد بالمركب الغريزى جزء يكون مع غيره من الأجزاء غريزة بعينها . (المترجم)

يجده في جسم المرء ذاته . وعليه فهي أولاً غير مركزة وتغلب عليها الشهوانية الذاتية . ثم تشرع بعد ذلك في التآلف ، فتبلغ أول مراحل التنظيم تحت سيطرة المركبات القمّية ، ويعقب ذلك مرحلة سادية شرجية ، ولا تأخذ الأعضاء التناسلية المقام الأول وتبدأ الوظيفة الجنسية تخدم أغراض النسل إلا بعد باوغ المرحلة الثالثة . ويحدث في سياق النموّ أن تنحى بعض عناصر المركبات الغريزية نظراً لقصورها في خدمة الغرض النهائي (التناسل) أو تستخدم في أغراض أخرى ، في حين يتحول البعض الآخر عن أهدافه ليندمج في الوظيفة التناسلية . وقد أطلقت اسم الليبدو على طاقة الغرائز الجنسية دون غيرها . ثم لم يسعني إلا أن أسلم بأن الليبدو لا يمضي دائماً بذلك اليسر في مجرى نموه المرسوم . ذلك أن الليبدو قد يثبت عند بعض المواضع من مجرى نموه ، إما عند قوة زائدة في بعض المركبات ، وإما عن خبرات انطوت على إشباع سابق لأوانه . فإن حدث بعد ذلك كبت ، عاد الليبدو أدراجه إلى هذه المواضع (أطلق على هذه العملية الارتداد) ، ومن هذه [المواضع] تنبجس الطاقة في شكل أعراض . واتضح بعد ذلك أن اختيار نوع العصاب ، أي الشكل الذي يتخذه المرض فيما بعد ، رهن بالموضوع الذي حدث عنده التثبيت .

إن عملية الوصول إلى موضوع للحب ، تلك العملية التي تلعب دوراً هاماً في الحياة النفسية ، تتمشى مع تكوّن الليبدو . فبعد مرحلة الشهوانية الذاتية ، يكون أول موضوع للحب لدى الجنسين هو الأم ؛ ويرجح أن الطفل لا يميز في بادئ الأمر ثدى أمه من جسده هو . وبعد ذلك ، في السنوات الأولى أيضاً من الطفولة ، تتكوّن العلاقة المعروفة بعقدة أوديب : فيركز الأولاد رغباتهم الجنسية في الأم وتكوّن لديهم دوافع عدوانية ضد الأب بوصفه غريماً ، وتتخذ البنات اتجاهاً مقابلاً^(١) . إن جميع أشكال عقدة أوديب ومشتقاتها ذات أهمية كبيرة ، وبخاصة

(١) ملاحظة إضافية (سنة ١٩٣٥) : استمدت المعلومات عن الجنسية الطفلية من دراسة الرجال ، وكانت النظرية المستنتجة منها خاصة بالذكور من الأطفال . وكان من الطبيعي أن

أن الازدواج الفطري في التكوين الجنسي لدى الإنسان يظهر أثره فيضاعف في عدد الميول التي تنشط في آن واحد . ويبقى الأطفال رديحاً من الزمن قبل أن يفتنوا إلى ما بين الجنسين من فروق ؛ وفي خلال فترة الاستطلاع الجنسي هذه يتبدعون نظريات جنسية خاصة بهم ، وهي — ما دام نموهم الجسمي لم يكتمل — نظريات يمتزج فيها الصواب بالخطأ وتعجز عن حل ألغاز الحياة الجنسية (لغز أبي الهول — مسألة من أين يأتي الأطفال) . نرى من ذلك أن أول موضوع يتخيرهُ الطفل يكون من المحارم . إن مرحلة النمو التي وصفناها تم برمتها في وقت قصير . ذلك أن أبرز سمة في حياة الإنسان الجنسية هي كونها تأتي على جولتين ، تفرق بينهما فترة من الزمن . فهي تبلغ أوج جولتها الأولى في السنة الرابعة أو الخامسة من عمر الطفل . ولكن لا يلبث هذا الازدهار المبكر للجنسية أن يعتريه الذبول ، فتلك الحيوية التي يمتاز بها الدافع الجنسي في باكورته تخمد تحت وطأة الكبت ، ليعقب ذلك فترة كمون ، تدوم حتى البلوغ وفي غضوننا تنشأ مكونات مضادة هي لب الأخلاق والحياء والاشمئزاز ^(١) . ويبدو أن الإنسان هو وحده من بين الكائنات الحية الذي ينبعث عنده النمو الجنسي على دفعتين ، وربما كان ذلك هو السبب البيولوجي لما لديه من استعداد للعصاب . وعند البلوغ تدب الحياة مرة أخرى في دوافع الطفل وعلاقاته التي سادت في السنوات الأولى ، ومن بينها روابط عقدة أوديب الوجدانية . فالحياة الجنسية في البلوغ صراع بين دوافع السنوات الباكورة وتعطيلات فترة الكمون ، وقبل ذلك ، بينما الطفل في قمة

نتوقع وجود تقابل تام بين الجنسين ؛ ولكن تبين خطأ ما توقعناه . فقد كشفت البحوث والتأملات التالية عن فروق جوهرية بين النمو الجنسي للذكور والإناث . فالموضوع الجنسي الأول للطفلة (شأنها شأن الطفل) هو أمها ؛ ولابد للمرأة قبل أن تبلغ نهاية نموها السوي من أن تغير لا موضوعها الجنسي فحسب بل والمنطقة التناسلية المسيطرة عندها . ومن هنا تنشأ صعوبات واحتمالات تعطيل لا وجود لها في حالة الرجال .

(١) (ملحق ١٩٣٥) فترة الكون ظاهرة فسيولوجية . ومع ذلك فهي لا تسبب تعطيلاً تاماً للحياة الجنسية إلا في النظم الاجتماعية التي جعلت قمع الجنسية الطفلية أحد أهدافها . وليس الحال كذلك لدى معظم الشعوب البدائية .

نموه الجنسي الطفلي ، يتمّ ضرب من التكوين التناسلي ؛ تقوم فيه أعضاء التناسل الذكورية وحدها بدور ، في حين لا تكون الأعضاء الأنثوية قد اكتشفت بعد . (أطلقت على هذه الفترة مرحلة سيطرة القضيب) . وفي هذا الطور لا يكون التمييز بين الجنسين قد صيغ بعد في عبارات (ذكر) و (أنثى) بل في عبارات ” يمتلك قضيباً “ أو ” مخصى “ . وإن عقدة الخصاء التي تتكون حينذاك ذات أهمية عميقة في تكوين الخلق والعصاب على حد سواء .

ولكى أوضح ذلك العرض المركز لاكتشافاتي في حياة الإنسان الجنسية جمعت بين النتائج التي توصلت إليها على مرّ الأيام وضمنتها الطبقات المتتالية من كتابي « ثلاث مساهمات في نظرية الجنسية » على سبيل التصحيح أو التذييل . وآمل أن يكون هذا العرض قد يسّر فهم توسعي في معنى الجنسية (التي أعيرت اهتماماً كبيراً وأثارت المعارضة الكبرى .) وهذا التوسع ذو شقين . أولهما فصل الجنسية عن ذلك الارتباط الضيق بالأعضاء التناسلية واعتبارها وظيفة جسمية أشمل من ذلك ، غرضها الأول اللذة ولا تخدم الأغراض التناسلية إلا على نحو ثانوي . وثانيهما اعتبار الدوافع الجنسية متضمنة كل مشاعر الود والصدقة المحض والتي جرى العرف على تسميتها بلفظ عام مبهم ، هو المحبة . ولست أعتبر مع ذلك ، أن في هذا التوسع في معنى الجنسية أمراً جديداً بل تصحيحاً غرضه إزالة ما أحاط بفكرة الجنسية من حدود ضيقة انسقنا إلى وضعها انسياقاً .

وقد أتيج لنا بفصل الجنسية عن أعضاء التناسل أن نصل النشاط الجنسي للأطفال والشواذ بالنشاط الجنسي للراشدين الأسوياء . وكان النشاط الجنسي للأطفال حتى ذلك الحين مجهولاً جهلاً تاماً ، أما النشاط الجنسي للشواذ فقد كان معروفاً ولكنها المعرفة التي يشوبها التحقير ويعوزها التفهم . ولكن التحليل النفسي يعتبر الانحرافات حتى أكثرها غرابة ونكراً أموراً قابلة للتفسير بوصفها مظاهر المركبات الغريزية للجنسية ، تلك المركبات التي تخلصت من سيادة الأعضاء التناسلية ومضت باحثة عن اللذة لحسابها الخاص كما كانت تفعل في

مطلع نموّ الليبدو في الطفولة . وأهم هذه الانحرافات ، أى الجنسية المثلية ، ليس انحرافاً بمعنى الكلمة . فيمكن إرجاعها إلى الازدواج الجنسي الجبليّ الذي يوجد لدى جميع أفراد الإنسان ، وإلى الآثار المتخلفة عن المرحلة القضيبية . ويمكننا التحليل النفسى من أن نكشف لدى كل فرد أثراً ما لميل جنسى مثلى . فإن كنت وصفت الأطفال ”بالشذوذ متعدد الأوجه“ ، فإنما كنت أستعمل تعبيرات شائعة ؛ دون أن أقصد حكماً أخلاقياً . فالتحليل النفسى لا شأن له إطلاقاً بمثل تلك الأحكام المنصبة على القيم .

إن ثانى التوسعات المشار إليها في نظرية الجنسية يبرره ما كشف عنه التحليل النفسى من أن جميع دوافع الودّ كانت في الأصل ذات طابع جنسى كامل ولكنها عطلت عن متابعة هدفها أو أعليت . أما والغرائز الجنسية يمكن أن تتأثر وتغير اتجاهها على هذا النحو فقد أمكن استغلالها في النشاط الثقافى من كل لون ، ذلك النشاط الذى تسهم فيه الغرائز بأكبر نصيب .

إن كشوفى المستغربة في الجنسية لدى الأطفال وصلت إليها في بادئ الأمر عن طريق تحليل الراشدين . ولكن أمكن فيما بعد (منذ حوالى سنة ١٩٠٨ وما بعدها) التحقق منها على أتم وأوفى وجه بالملاحظات المباشرة للأطفال . وإنه لمن اليسير حقاً أن يقتنع المرء بوجود نشاط جنسى مطرد لدى الأطفال حتى لا يسعه إلا أن يتساءل في دهشة كيف استطاع الجنس البشرى أن ينجح في إغفال الحقائق واعتناق تلك الأسطورة المستحبة ، أسطورة لا جنسية الطفولة ، طوال ذلك الزمن . هذا الأمر العجيب لا بدّ أنه راجع إلى النسيان الذى يخفى عن معظم الراشدين طفولتهم .

الفصل الرابع

نظريات المقاومة والكبت واللاشعور ، وقيمة الحياة الجنسية في تحليل المرض وأهمية الخبرات الطفلية - تلك هي العناصر الرئيسية التي يتكون منها البناء النظري للتحليل النفسي . ولم يكن في وسعي مع الأسف في هذه الصفحات إلا أن أصف العناصر منفصلة لا في تداخلها فيما بينها وتأثير كل منها على الآخر . ولكن أراني الآن مضطراً إلى أن أعرج على التعديلات التي طرأت تدريجياً على فن المنهج التحليلي .

لم يكن بد أن أتخذ في بادئ الأمر من الإلحاح والتشجيع وسيلة للقضاء على مقاومة المريض بغية الحصول على نظرة مبدئية عامة لما يصحح أن نتوقع وجوده . ولكن تبين مع الزمن ما تسببه تلك الوسيلة من إجهاد لكلا الطرفين ، الطبيب والمريض . وفضلاً عن ذلك فلم تكن بمنجاة من مآخذ بيئة . ومن ثم استعيض عنها بمنهج آخر يكاد يكون عكسها . فبعد أن كنت أحفز المريض إلى أن يذكر شيئاً عن موضوع بعينه ، أصبحت أطلب منه أن يستسلم لعملية تداع حر ، أعني أن يذكر كل ما يخطر بذهنه ، على أن يتجنب أي توجيه شعوري لخواتمه . ولم يكن بد ، مع ذلك ، أن يلتزم المريض بذكر كل شيء يخطر بباله حرفياً معرضاً عن الاعتراضات النقدية التي من شأنها أن تستبعد بعض الخواطر بحجة عدم أهميتها أو عدم مناسبتها أو بحجة الأامعنى لها ، ولا حاجة بنا أن نلج ، في مطالبة المريض صراحة بضرورة توخي الصدق في تسجيل خواطره ، طالما قد أوضحنا له أن ذلك هو الشرط الأساسي في العلاج التحليلي بأسره .

قد يبدو عجيباً أن طريقة التداعي الحر هذه التي هي تطبيق للقاعدة الأساسية في التحليل النفسي ، قد حققت ما كان ينتظر منها ، أي نقل الأمور

المكبوتة التي كانت تحتجزها المقاومات إلى الشعور . ومع ذلك يجب ألا يغيب عن بالنا أن التداعى الحر ليس في حقيقة الأمر حرّاً . ذلك أن المريض يبقى تحت تأثير الموقف التحليلي حتى ولو لم يوجه عملياته العقلية نحو موضوع بالذات . ويحق لنا أن نفترض أنه ما من شيء يعرض للمريض إلا وله صلة ما بذلك الموقف . وتتكشف المقاومة التي يبذلها ضد استرجاع الأمور المكبوتة على نحوين . تتكشف أولاً في الاعتراضات النقدية ؛ وما ابتكرت القاعدة الأساسية في التحليل النفسى إلا لمعالجة هذه الاعتراضات . ولكن إن التزم المريض هذه القاعدة وتغلب بالتالى على تحفظه ، لم تعد المقاومة وسيلة أخرى للتعبير عن نفسها . فهي تحول دون أن تخطر للمريض الأمور المكبوتة بالذات ، وإنما تخطر له أمور تقرب منها تلميحاً ؛ وكلما عظمت المقاومة ، بعدت الشقة بين البديل الذى يذكره المريض بطريق التداعى وبين الفكرة الأصلية التي يبحث عنها المحلل . فالمحلل الذى يصغى فى هدوء دون إجهاد لتيار التداعى ، والذى له من خبرته فكرة عامة عما هنالك ، يستطيع أن يستخدم الأمور التي أبداه المريض على أحد نحوين . فإن كانت المقاومة طفيفة استطاع أن يستدل من تلميحات المريض على الأمور اللاشعورية ذاتها ؛ أما إن كانت المقاومة أشد استطاع أن يتبين نوعها من الخواطر المتداعية لإمعانها فى البعد عن الموضوع ، وفسرها للمريض . ومع ذلك فإن الكشف عن المقاومة ليس سوى الخطوة الأولى فى سبيل التغلب عليها . فالتحليل إذن عمل يتضمن فناً تأويلياً ، لا بد للنجاح فى استخدامه من لباقة ومران ولكن ليس من العسير اكتساب ذلك الفن . ولا تمتاز طريقة التداعى الحر على الطريقة القديمة فى اقتصاد الجهد فحسب . فهي فضلاً عن ذلك لا تعرض المريض إلا لأقل قدر ممكن من الإكراه ، ولا تقطع أبداً الاتصال بالموقف الراهن ، وتضمن إلى حد كبير ألا يُغفل أى عامل فى تركيب العصاب ، أو يقحم فيه المحلل شيئاً من عنده . والأساس أن مسار التحليل وتنظيم المادة رهن بما يعرض للمريض ؛ ومن هنا يمتنع على المحلل تناول أى أعراض أو

عقد بطريقة منظمة مطردة . وعلى النقيض تماماً مما كان يجرى فى التنويم وفى طريقة الحفز ، تظهر مكونات موضوع ما فى أوقات ومواضع متباينة من العلاج . ولذلك كان العلاج بالتحليل يبدو فى غاية الغموض للمتفرج - ولو أنه لا يمكن أن يوجد متفرج فى الواقع .

وثمة ميزة أخرى للطريقة ، تلك هى أنها لا يمكن أبداً أن تخيب فى حقيقة الأمر . فالواقع أنه يمكن دائماً الحصول على خاطر ما ، طالما لم نشترط أن يكون من نوع بالذات . بيد أن ثمة فى الواقع حالة واحدة تخيب فيها الطريقة دائماً ، ومع ذلك ، فهذه الحالة لتفرد بها يمكن بدورها أن تُؤول .

على "الآن أن أصف عاملاً يضيف قسمة رئيسية للصورة التى رسمتها للتحليل النفسى ، قسمة يجدر اعتبارها ، نظرياً وفنياً ، فى المقام الأول من الأهمية . فى كل علاج تحليلى ، تنشأ على غير تدخل من الطبيب ، علاقة وجدانية عنيفة بين المريض والمحلل ، علاقة لا يمكن أن يفسرها الموقف الراهن . قد تكون تلك العلاقة موجبة وقد تكون سالبة ، وقد تتراوح بين طرفى نقيض ، بين حالة حب قوى ذى طابع شهوانى صريح وبين أقوى تعبير عن التحدى والبغض الشديد . هذا النقل - كما اصطلاحنا على تسميته - سرعان ما يحل فى نفس المريض محل الرغبة فى الشفاء ، ويصبح ما دام ودياً معتدلاً العامل الفعال فى تأثير الطبيب على المريض ، والمحرك الرئيسى لعملية التحليل المشتركة بينهما لا أكثر ولا أقل . ولكن عند ما يصبح النقل فيما بعد عشقاً عنيفاً أو ينقلب إلى عداوة يصبح الأداة الرئيسية للمقاومة . وقد يحدث حينئذ أن يشل قدرة المريض على التداعى ويقف حجر عثرة فى سبيل نجاح العلاج . ولكن من الخرق أن نحاول أن نتجنبه ، لأن تحليلاً من غير نقل أمر مستحيل .

ومع ذلك لا ينبغى أن نظن أن النقل من خلق التحليل ولا يحدث إلا فيه . كل ما هنالك أن التحليل يكشف عنه ويبرزه . فالنقل ظاهرة عامة للنفس الإنسانية ، وهو الذى يقرر النجاح لتأثير الطبيب فى مهمته ،

ويسيطر في الواقع على مجموع علاقات كل شخص ببيئته الإنسانية .
ويمكننا بسهولة أن ندرك أنه نفس العامل الدينامي الذي أسماه المنوّمون
”القابلية للاستهواء“ ، والذي يعتبر العامل الفعال في العلاقة التنويمية والذي أدت
تقلباته العديدة إلى صعوبات كثيرة في طريقة التطهير . وعند ما تنعدم لدى
المريض القابلية إلى مثل ذلك النقل الوجداني ، أو عند ما يصبح سلبياً صرفاً كما
هو الحال في الجنون المبكر أو البارانويا ، فلا أمل في التأثير على المريض
بالوسائل السيكولوجية ^(١) .

حقاً إن التحليل النفسي ، شأن غيره من طرق العلاج النفسية ، يستخدم
أداة الإيحاء (أو النقل) ، ولكن مع الفارق التالي : لا يُترك له في التحليل القيام
بالدور الحاسم في تحديد النتائج العلاجية ، ويستخدم بدلاً من ذلك في حفز
المريض إلى تأدية عمل عقلي — هو التغلب على مقاومات النقل — عمل يتضمن
تعديلاً دائماً في توزيع القوى النفسية ^(٢) . على المحلل أن يجعل المريض يفتن
إلى النقل ، وعليه أن يفضيه بأن يبين له أن موقفه في النقل إنما هو ابتعاث
لعلاقات وجدانية مصدرها تعلق قديم بأفراد معينين إبان الفترة المكبوتة من طفولته.
وعلى هذا النحو يصبح النقل أحسن أداة للعلاج بالتحليل بعد أن كان أمضى
أسلحة المقاومة. ومع ذلك تبقى كيفية استخدامه أصعب وأهم جزء في فن التحليل.
بفضل طريقة التداعي الحر وفن التأويل المرتبط بها ارتباطاً وثيقاً ،
وفق التحليل النفسي إلى شيء قد يبدو دون فائدة عملية ولكنه أفضى ضرورة إلى
اتجاه جديد ومقياس جديد للقيم في التفكير العلمي . فقد أمكن أن نثبت أن
للأحلام معنى وأن نكتشف ذلك المعنى . كان للأحلام في العصور القديمة أهمية

(١) تبين من تقدم البحوث التحليلية في العشرين سنة الأخيرة أن المصابين بالجنون المبكر
والبارانويا لا تنعدم لديهم القابلية للنقل انعداماً تاماً ، ولكن النقل عندهم من طبيعة تغاير
طبيعته في العصاب ، الأمر الذي يتطلب تعديل طريقة التحليل كي تلائم حالة هؤلاء . (المترجم)
(٢) يصطلح في التحليل النفسي على تسمية عملية التوزيع الكمي لقوى النفس المختلفة
باقتصاديات النفس . (المترجم)

كبيرة في التنبؤ بالمستقبل ؛ ولكن العلم الحديث أعرض عنها ، إذ أسلمها للخرافة معلناً أنها مجرد عمليات "جسمية" أو نوع من التشنج يطرأ على ذهن هو في حالة النوم . ولم يكن يتصور أحد أن يظهر شخص قام بعمل علمي جدّي كمثول أحلام . ولكن التحليل النفسي عند ما أنكر نبذ البحث في الأحلام ، وعند ما اعتبرها أعراضاً عصابية لم تفسر ، وأفكاراً هذائية أو وسواسية ، وعند ما تغاضى عن ظاهر فحواها متخذاً من الصور المنفصلة التي تتكوّن منها موضوعات للتداعي الحر ، وصل التحليل النفسي إلى نتيجة مغايرة . أدت الحواطر المتعدّدة التي أنتجها الحلم إلى اكتشاف تركيب ذهني لم يعد يوصف بمجافاته للعقل أو اختلاطه ، إنما هو على قدم المساواة بأي إنتاج ذهني آخر ، تركيب ليس الحلم الظاهر فيه إلا ترجمة شائبة مبتسرة غير مفهومة ، ترجمة إلى صور بصرية في العادة . تلك الأفكار الكامنة في الحلم تنطوي على معنى الحلم ، في حين كان ظاهر فحواها مجرد إيهام ، مجرد واجهة ، تفيد كنقطة يبدأ منها تداعي الحواطر لا التأويل .

كان لا بدّ بعد ذلك من الإجابة على سلسلة بأسرها من الأسئلة ، من أهمها هل ثمة دافع لتكوين الأحلام ؟ ، ما الشروط التي تحدثها ؟ ، ما الطرق التي تحولت بها خواطر الحلم (تلك التي تزخر دائماً بالمعنى) إلى حلم (هو في الغالب لا معنى له) ، وغير ذلك من الأسئلة . حاولت أن أحل جميع تلك المشاكل في كتاب (تأويل الأحلام) الذي نشرته عام ١٩٠٠ . ولا يتسع المقام هنا إلا إلى خلاصة موجزة جداً لبحثي . عند ما تفحص أفكار الحلم الكامنة التي يكشف عنها تحليل الحلم ، تبرز إحداها من بين سائر الأفكار المفهومة التي يعرفها الحالم جيداً . هذه الأفكار الأخيرة من مخلفات اليقظة (مخلفات النهار ، كما تسمى فنياً) ؛ ولكن تبين أن الفكرة البارزة إن هي إلا رغبة ، من نوع تمجده النفس ، رغبة غريبة على الحالم في يقظته وبالتالي فهو ينكرها في استغراب أو ازدراء ، هذه الرغبة هي المنشئ الفعلي للحلم : فهي توفر الطاقة اللازمة لإنتاجه

وتتخذ من مخلفات النهار مادة لها ؛ والحلم الذى ينشأ على ذلك النحو يمثل موقفاً فيه إشباع لتلك الرغبة ، فالحلم إذن تحقيق للرغبة . وما كان لهذه العملية أن تتم ما لم تهيب لها طبيعة حالة النوم . ذلك أن الشرط النفسى الأساسى للنوم هو تركيز الذات فى رغبة النوم وانسحاب الطاقة النفسية من جميع مشاغل الحياة ؛ وحيث أنه فى نفس الوقت تغلق جميع المنافذ المؤدية إلى الحركة ، كان بوسع الذات أيضاً أن تقلل قدر المنصرف من الطاقة التى تقوم بالكبت فى أوقات أخرى . يستفيد الدافع اللاشعورى من ذلك التراخى اللبلى للكبت فى أن يجد السبيل إلى الشعور بواسطة الحلم . على أن ما تبذله الذات من مقاومة كابته لا تتلاشى فى حالة النوم ولكنها تقل فقط . ويبقى جزء منها فى هيئة ” رقابة على الأحلام ” تمنع الدافع اللاشعورى من التعبير عن نفسه فى الأشكال التى من شأنه أن يظهر بها لولا ذلك . يترتب على صرامة الرقابة على الأحلام ، أن تضطر أفكار الحلم الكامنة إلى أن تخضع للتغيير والتخفيف إخفاءً للمعنى المحظور الذى ينطوى عليه الحلم . وذلك ما يفسر تشوه الأحلام ، الذى إليه ترجع أبرز خاصية فى ظاهر الحلم . يحق لنا إذن أن نقرر أن كل حلم إنما هو تحقيق (مقنع) لرغبة (مكبوتة) . وهكذا نتبين أن الأحلام تتكون كأى عرض عصابى : فهى محاولات توفيق بين مطالب دافع مكبوت وبين مقاومة تبذلها قوة الرقابة فى الذات . وحيث أن لهما أصلاً واحداً كان كلاهما غير مفهوم ومفتقراً إلى تأويل .

ليس من العسير اكتشاف وظيفة الحلم العامة . فهو يهدف عن طريق التخفيف إلى درء المنبهات الخارجية أو الداخلية التى قد تؤدى إلى إيقاظ النائم ، وبذلك تحمى النوم من أى انقطاع . ويكون درء المنبهات الخارجية بإعطائها معنى جديداً وإدماجها فى موقف لا ضير منه ؛ أما المنبهات الداخلية الناشئة من ضغط الغرائز فيترك لها النائم الحرية ويسمح لها أن تجد إشباعاً فى تكوين الأحلام ، ما دامت أفكار الحلم الكامنة خاضعة لحكم الرقابة . ولكن إن همت بالانطلاق

وأصبح معنى الحلم أوضح من اللازم ، قطع النائم حلمه واستيقظ في رعب .
 (هذه الفئة من الأحلام تسمى بأحلام القلق) . ويلحق وظيفة الحلم إخفاق مماثل
 إن أصبح المنبه الخارجى أقوى من أن يلدأ . (وتلك فئة الأحلام الموقظة) . وقد
 أطلق اسم إنتاج الأحلام على العملية التى تحول بمعونة الرقيب الأفكار الكامنة
 إلى مضمون الحلم الظاهرى . وهى عبارة عن معالجة فريدة لمادة الفكر قبل
 اللاشعورية ، بحيث تتكشف عناصرها ويزاح تأكيدها النفسى وتترجم بأسرها إلى
 صور بصرية أو تُشخص ، ثم تُحبك بعملية إنتاج ثانوى خادعة . إنتاج الأحلام
 مثل رائع للعمليات التى تجرى فى الطبقات اللاشعورية العميقة من النفس ، تلك
 العمليات التى تختلف اختلافاً كبيراً عن عمليات الفكر السوية المألوفة . وهى
 تكشف فضلاً عن ذلك عن عدة خصائص قديمة ، مثل استخدام الرمزية
 (وهى فى هذه الحالة ذات صفة جنسية غالبية) التى أمكن منذ ذلك الحين
 اكتشافها فى غير ذلك من مجالات النشاط النفسى .

بينما أن الدافع اللاشعورى الذى يسبب الحلم يتصل بجزء من مخلفات النهار ،
 وباهتمام لا ينفد بعالم اليقظة ؛ هذا يكسب الحلم الذى يأتى على ذلك النحو قيمة
 مزدوجة لعملية التحليل . حقاً إن الحلم عند ما يحلل يتكشف على أنه تحقيق
 لرغبة مكبوتة ذلك من ناحية ؛ ولكن الحلم من ناحية أخرى استمرار لنشاط قبل
 شعورى جرى فى النهار السابق ويحتوى على مادة ما ، سواء كان معبراً عن عزم ،
 أو تحذير ، أو تأمل ، أو كان مرة أخرى معبراً عن تحقيق رغبة ما . فالتحليل
 يستغل الحلم فى ناحيتين ، أى كوسيلة للوقوف على عمليات المريض الشعورية
 واللاشعورية على حد سواء . وبفيد فضلاً عن ذلك من أن الأمور المنسية من
 الطفولة قد تظهر فى الأحلام ، وهكذا يحدث أن يقضى تأويل الأحلام إلى حد
 كبير على النسيان الطفلى . ومن هنا كانت الأحلام تؤدي جزءاً من المهمة التى
 كانت من قبل من خصوص التنويم . إلا أننى مع ذلك ، لم أقرر قط ما نسب
 إلى من أن تأويل الأحلام يبين أن بلجميعها مضموناً جنسياً أو أنها جميعاً صادرة

عن قوى دافعة جنسية . فمن اليسير أن نتبين أن الجوع ، أو العطش ، أو الحاجة إلى الإفراز ، قد تنتج أحلام إشباع شأن أى دافع مكبوت ، جنسى أو أنانى . ولنا فى حالة صغار الأطفال اختبار طيب لصحة نظريتنا فى الأحلام . إذ لا تكون الأجهزة النفسية المتعددة قد انقسمت فيما بينها الانقسام الحاسم ، ولا يكون الكبت قد تأصل ، ولذلك غالباً ما تعرض لنا أحلام ليست سوى إشباع غير مقنّع لدوافع تخلفت عن اليقظة . وبالمثل قد يحلم الراشدون ، تحت تأثير الحاجات الملحة أحلاماً من ذلك الصنف (١) .

وكما أفاد التحليل النفسى من تأويل الأحلام ، أفاد أيضاً من دراسة فلتات اللسان والهفوات المتعددة — أو كما تسمى الأفعال العرضية — التى يقع فيها الناس . درست هذا الموضوع فى سلسلة من الرسائل نشرت لأول مرة سنة ١٩٠٤ فى شكل كتاب بعنوان « سيكوباثولوجية الحياة اليومية » . فى هذا البحث الذائع برهنت على أن هذه الظواهر ليست اتفاقية ، وأنها تتطلب أكثر من مجرد التفسيرات الفسيولوجية ، وأن لها معنى وتقبل التأويل ، وأن بوسع المرء أن يستنتج منها وجود دوافع ونوايا محجوزة أو مكبوتة . ولكن ليست الأهمية الكبرى لتأويل الأحلام وهذه الدراسة الأخيرة فى العون الذى تقدمه لعملية التحليل ولكن فى أمور أخرى . ذلك أن التحليل النفسى لم يكن له شأن من قبل إلا بعلاج ظواهر مرضية ، لا بدّ له كى يفسرها من التورط كثيراً من الأحيان فى وضع فروض شاملة شمولاً لا يتناسب مع أهمية المادة المدروسة فعلاً . ولكن عند ما وصل إلى الأحلام ، لم يعد بصدد عرض مرضى ، بل بصدد إحدى ظواهر الحياة النفسية السوية التى قد تعرض لأى شخص سليم . إن كان قد تبين أن الأحلام تتكوّن على نحو تكوّن الأعراض ، وإن تطلب تفسيرها نفس الفروض

(١) (مذكرة إضافية ، ١٩٣٥) حيث أن عملية إنتاج الحلم كثيراً ما تخفق ، أمكن أن يتصف الحلم بأنه محاولة لتحقيق رغبة ما . ولا يزال تعريف أرسطو القديم للحلم بأنه حياة عقلية أثناء النوم محتفظاً بصحته . إذن كان ثمة داع أن اتخذت عنواناً لكتابه ، تأويل الأحلام بدلا من الحلم .

ـ كبت الدوافع ـ عملية الإبدال ، عملية توفيق ، تقسيم الشعور واللاشعور إلى عديد من الأجهزة النفسية — فلم يعد التحليل النفسى علماً ثانوياً في مجال علم النفس المرضى ، بل أصبح بالأحرى أساساً لعلم جديد بالنفس أكثر عمقاً ، علم لا غنى عنه أيضاً في فهم الحياة السوية ويمكن أن تصدق مسلماته وكشوفه على مجالات أخرى من الحياة النفسية ، وبذلك اتسع مجاله فبلغ ميادين قاصية ذات أهمية شاملة .



الحجرة التي كان يزاول فيها فرويد التحليل النفسي في فيينا .
وترى المكتبة التي يستلقي عليها المرضى ، كما نلاحظ أنها زاخرة
بالتحف المصرية القديمة التي كان فرويد مولعاً بها كل الومع .

الفصل الخامس

لا بد أن أقف عرضي لنمو التحليل النفسي في ذاته ، وأعرج على تاريخ ملابساته الخارجية . كل ما شرحتة حتى الآن من كشف التحليل النفسي يختص القسط الأكبر منه بنتائج بحثي الخاص ؛ ولكنني أدمجت في قصتي أموراً من تواريخ متأخرة فلم أفرق بين ما قدمته أنا وبين ما قدمه تلامذتي وأتباعي . بقيت أكثر من عشرة أعوام بعد انفصالي عن « بروير » دون أتباع ، فكنيت في عزلة تامة . وكان نصيبي الإعراض في فيينا ولم يلتفت إلى أحد في الخارج . وقلما عرضت المجلات الفنية لكتابي تأويل الأحلام الذي نشر عام ١٩٠٠ . وقد أشرت في مقالتي عن " تاريخ حركة التحليل النفسي " ، كمثال للموقف الذي كانت تتخذه مني دوائر الطب النفسي في فيينا ، إلى محادثة جرت مع مساعد بالمستشفى ، كان قد ألف كتاباً يعارض فيه نظرياتي دون أن يقرأ كتابي في تأويل الأحلام . فقد ألقى في روعه بعض من بالمستشفى أنه كتاب تافه . وقد تمادى هذا الرجل ، الذي أصبح منذ ذلك الحين أستاذاً ، فأنكر بياني عن المحادثة ، وأثار شكوكاً حول دقة ذاكرتي . ولا يسعني إلا أن أقول إنني أؤيد كل كلمة من الكلمات التي وردت في ذلك التقرير .

ما أن أدركت أن ذلك الموقف لم يكن منه بد ، حتى قلت حساسيتي إلى حد كبير . وفضلاً عن ذلك انقضت عزلتي بالتدريج ، إذ بدأ نفر من التلاميذ يلتفون حولي في فيينا ، ثم وافتنا الأنباء بعد عام ١٩٠٦ أن الأطباء النفسيين في زيورخ ، « يوجين . بلوير » ، ومساعدته « كارل . ج . يونج » وغيرهما يولون التحليل النفسي اهتماماً عظيماً ، فاتصلنا اتصالاً شخصياً ، وفي عيد الفصح عام ١٩٠٨ تلاقى أصدقاء العلم الناشئ في سالبورج ، واتفقوا على أن يعقدوا بانتظام مؤتمرات خاصة بمائلة وأعدوا العدد لإصدار مجلة يرأس تحريرها

« يونج » باسم : جريدة البحوث السيكوباتولوجية والتحليلية . وقد صدرت المجلة تحت إشراف « بلويلر » وإشرافى ثم توقفت عن الصدور فى بدء الحرب الكبرى^(١) . وفى نفس الوقت الذى انضم فيه أطباء سويسرا النفسيون إلى الحركة ، كان الاهتمام بالتحليل النفسى قد بدأ يظهر فى ألمانيا بأسرها ؛ إذ أصبح موضوعاً لعدد كبير من التعليقات التحريرية فضلاً عن المناقشات الحارة بالمؤتمرات العلمية . ولكنه لم يحظ أبداً بقاء ودى أو حتى بترحيب دون تحيز . وإن هى إلا معرفة وجيزة بالتحليل النفسى حتى أجمع العلم الألمانى على نبذه .

بل إنه ليستحيل اليوم على بطبيعة الحال أن أتكهن ماذا سيكون حكم الخلف النهائى على قيمة التحليل النفسى للطب النفسى ، وعلم النفس ، وللعلوم العقلية على وجه العموم . ولكن يهياً لى أنه عند ما تحين كتابة تاريخ المرحلة التى عشناها ، فلن يكون للعلم الألمانى حق الافتخار بأولئك الذين مثلوه . ليس ذلك لأنهم نبذوا التحليل النفسى أو لأنهم فعلوا ذلك بطريقة قاطعة ؛ فكلتا الأمرين كان من السهل فهمهما ، وكانا أمراً منتظراً ، وعلى كل حال فلم يكن فيهما ما يُشِين مُناوئى التحليل ؛ ولكن الذى لا يُغتفر لهم هو ما أبدوه من مكابرة ، وازدراء للمنطق غير أمين ، وفضاظة هجماتهم وفساد ذوقها . قد يقال إنه لأمر صبيانى منى أن أطلق العنان الآن لمثل تلك المشاعر بعد أن انقضت خمس عشرة سنة ؛ وما كان لى أن أفعل ذلك لولا أن عندى شيئاً آخر أضيفه . بعد أعوام ، وفى أثناء الحرب العظمى ، عند ما كانت جماعة من الأعداء ينهمون الأمة الألمانية بالهمجية ، تلك التهمة التى توجز كل ما وصفته آنفاً فقد آلمنى أشد الألم أن خبرتى الخاصة لا تسمح لى بإنكارها .

وقد زها أحد المناوئين لى بأنه يُسكت مرضاه بمجرد شروعاتهم فى الحديث عن أى شىء جنسى ، وواضح أنه كان يرى أن تلك الطريقة تعطيه الحق فى الحكم على الدور الذى تلعبه الجنسية فى الأمراض العصابية . ففضلاً عما لديهم

من المقاومات الانفعالية التي لم يكن من العسير تفسيرها وفق نظرية التحليل النفسي بحيث لم يكن يتسنى لها أن تضللنا ، فقد بدا لي أن الحائل الأساسي دون تسليم المناوئين بالتحليل النفسي أنهم اعتبروه نتاج شطحاتي الخيالية ، وأصروا على ألا يؤمنوا بالعمل الطويل المثابر غير المتحيز الذي أدى إليه .

وحيث أن التحليل النفسي لا شأن له في زعمهم بالملاحظة أو التجريب ، فقد أحلوا لأنفسهم رفضه دون تجريب . في حين أن غيرهم ممن كانوا أقل يقيناً بتلك الحجة ، كانوا في مقاومتهم يصطنعون الحيلة القديمة ، أعني رفض النظر من خلال الميكروسكوب حتى يتجنبوا رؤية ما أنكروه . وإنه لعجيب ، حقاً ، أن معظم الناس يسلكون مسلكاً غير أمين إذا اضطروا إلى تكوين حكم خاص على موضوع جديد . منذ أعوام وأنا أسمع من نقاد " كرام " - ولا زلت أسمع نفس الشيء إلى الآن - أن التحليل النفسي صحيح في كذا وكذا ولكنه فيما عدا ذلك يغلو ويعمم دون مبرر . ولكنني أعلم أنه في حين أن من أصعب الأمور وضع مثل ذلك الحد الفاصل كان النقاد على جهل تام بالموضوع كله قبل ذلك بأسابيع أو أيام قلائل لا أكثر .

وكان من أثر الاستنكار الرسمي للتحليل النفسي أن بدأ المحللون النفسيون يتكثرون . ففي المؤتمر الثاني ، الذي عقد بنورمبرج سنة ١٩١٠ ، أسسوا بناء على اقتراح « فرنزى » ، « الجمعية الدولية للتحليل النفسي » مقسمةً إلى عدد من الجمعيات المحلية ولكن تحت رئاسة واحدة بقيت الجمعية الدولية إبان الحرب العظمى ولا تزال قائمة ، وتشمل اليوم فروعاً في النمسا ، وألمانيا ، والمجر ، وسويسرا ، وبريطانيا العظمى ، وهولندا ، وروسيا ، والهند ، وكذلك فرعين في الولايات المتحدة ^(١) . وقد دبّرت اختيار « كارل . ح . يونج » أول رئيس ،

(١) توجد الآن عدة فروع في الولايات المتحدة وكذلك في بعض بلاد أمريكا الجنوبية ، كما توجد فروع في فرنسا وبلجيكا وإيطاليا والسويد واليابان وإسرائيل . أما في مصر فيوجد نفر قليل من المحللين النفسيين وهم الأعضاء في فروع الجمعية الدولية وقد كونوا أخيراً رابطة للتحليل النفسي .
نوطنة لجعلها فرعاً من فروع الجمعية الدولية في القريب . (المترجم)

الأمر الذى تبين فيما بعد أنه كان خطوة أبعد ما تكون عن التوفيق . وفى نفس الوقت صدرت مجلة ثانية مخصصة للتحليل النفسى ، وهى « المجلة المركزية للتحليل النفسى » يحررها « أدلر » و « شتيكل » ، وبعد قليل صدرت مجلة ثالثة « إماجو » يحررها اثنان من المحللين غير الأطباء هما « ه . ساكس » و « أ . رانك » ، هدفها تطبيق التحليل على العلوم الإنسانية . وبعد ذلك بقليل نشر « بلويلر » مقالا فى الدفاع عن التحليل النفسى ^(١) . وأيا ما كانت الراحة التى استشعرتها إذ وجدت لأول مرة أمانة فى المناقشة واستقامة فى المنطق ، إلا أننى لم أستطع أن أشعر بالرضا التام على مقال « بلويلر » . لقد كافح فى حماس زائد كى يبدو نزيهاً ، ولم يكن من محض الصدفة أنه هو الذى كشف لنا عن تلك الفكرة القيمة ، « الازدواج الوجدانى » . وفى مقالات تالية اتخذ « بلويلر » ذلك الموقف النقدى من البناء النظرى للتحليل النفسى منكراً أو مثيراً الشكوك حول بعض أجزائه الرئيسية ، حتى لا يسغنى إلا أن أتساءل فى دهشة أبى منه بعد ذلك شىء يعجبه . ولكنه لم يكتف بعد ذلك بذكر أقوى الحجج دفاعاً عن « سيكلوجيا الأعماق » بل إنه جعلها الأساس الذى أقام عليه دراسته الشاملة للفصام . ومع ذلك لم يمكث « بلويلر » مدة طويلة عضواً فى الجمعية الدولية للتحليل النفسى ؛ إذ استقال منها على أثر خلافات مع « يونج » ، وبذلك فقد التحليل مستشفى « برجولزلى » ^(٢) .

لم يستطع الإنكار الرسمى للتحليل النفسى أن يحول دون انتشار التحليل النفسى لا فى ألمانيا ولا فى البلاد الأخرى . وقد تبعت فى كتاب آخر ^(٣) مراحل نموه مسمياً أولئك الذين كانوا أول ممثليه . فى عام ١٩٠٩ وجه « ستانلى هول » ليونج ولى دعوة إلى أمريكا كى نزور جامعة « كلارك » بورسستر ، ماساشوسيتس وكان رئيساً لها ، وكى نقيم أسبوعاً نلتقى فيه محاضرات (بالألمانية)

(١) التحليل النفسى عند فرويد ، مجلة البحوث السيكلوپاثولوجية والتحليل النفسى ، المجلد الثانى ١٩١٠ .

(٢) المستشفى العامة للأمراض العقلية بزيورخ .

(٣) فى تاريخ حركة التحليل النفسى .

بمناسبة الاحتفال بالذكرى العشرين لتأسيس تلك الجامعة . كان « لهول » اعتباره الحق كعالم نفسى وتربوى ، وكان قد أدخل التحليل النفسى ضمن محاضراته قبل ذلك الحين بأعوام ؛ وكانت تبدو عليه خصلة « صانع الملوك » يجد لذة فى إقامة السلطات ثم عزلها . وقد قابلنا أيضاً « جيمس پوتمان » طبيب الأعصاب بهارفارد ، الذى كان على الرغم من سنه متحمساً للتحليل النفسى والذى سهم بشخصيته ذات التقدير العالمى فى الدفاع عما للتحليل من قيمة ثقافية وأهداف نبيلة . كان « پوتمان » رجلاً يستحق التقدير ، يمتلكه — نتيجة استعداد فيه لعصاب الوسوسة — اتجاه أخلاقى ؛ وإن الشئ الوحيد الذى أسفنا له ، هو ميله إلى أن يصل التحليل النفسى بمذهب فلسفى خاص ، وأن يجعله خادماً لأهداف أخلاقية . وثمة حادثة أخرى وقعت فى ذلك الحين وكان لها أثر دائم على ، تلك هى لقائى الفيلسوف « وليم جيمس » . لن أنسى مشهداً بسيطاً وقع أثناء تريضنا ذات مرة . إذ توقف فجأة ، وناولنى حقيبة كان يحملها ثم طلب منى أن أمضى فى السير ، قائلاً إنه سيلحق بى حالما تزول عنه ذبحة صدرية كانت على وشك أن تنتابه . وبعد عام من ذلك الحادث توفى بذلك الداء وقد تمنيت دائماً أن أكون كما كان ثابت الجنان عند مواجهة الموت .

فى ذلك الوقت كنت لا أزال فى الثالثة والخمسين ، أشعر بالشباب والعافية ، وقد أذكت زيارتى القصيرة للعالم الجديد شعورى بقيمتى من كل النواحي . كنت فى أوروبا أشعر كما لو كنت محتقراً ؛ أما هنالك فوجدتني أقابل من أبرز الرجال مقابلة الند للند . فما صعدت إلى منصة « ورسستر » كى ألقى محاضراتى الخمس عن التحليل النفسى حتى خيل إلى أن حلماً لا يُصدق من أحلام اليقظة قد تحقق : لم يعد التحليل النفسى هذياناً ، بل أصبح جزءاً قيمياً من الواقع . ولم يتقهقر التحليل فى أمريكا منذ زيارتنا لها ؛ فهو شائع شيوفاً كبيراً بين عامة الجمهور ويعترف به نفر من الأطباء النفسيين الرسميين كعنصر هام فى دراسة الطب . ولكنه لسوء الحظ عانى الشئ الكثير بسبب ابتذاله . فضلاً عن أن

كثيراً من الأخطاء هو برىءٌ منها انتحلت اسمه، وليس هناك غير فرصٍ ضئيلة لمران كامل عملاً ونظراً^(١). هذا وقد تعارض في أمريكا مع المذهب السلوكي، ذلك الذي بلغت به السذاجة حدّ التفاخر أنه ألغى نهائياً مشكلة علم النفس برمتها^(٢). بين سنتي ١٩١١، ١٩١٣ وقعت في أوروبا حركتان انفصاليّتان عن التحليل النفسي، قادهما رجلان كان لهما من قبل دور معتبر في العلم الجديد، هما «ألفرد أدلر» و«يونيغ». وقد أُنذرت كلتا الحركتين بأكبر الخطر وسرعان ما التف حولهما كثير من الأتباع. على أن قوتيهما لم تأت من فحواهما الخاص، بل مما كانت تنطويان عليه من إغراء بالتبرؤ من الأمور المنفرة في التحليل النفسي دون حاجة إلى نبذ مادته الفعلية. حاول «يونيغ» أن يأتي لحقائق التحليل بتأويل جديد يتصف بأنه تأويل مجرد لا يستمد من خبرات الشخص ذاته أو من تاريخه آملاً من وراء ذلك أن يتخطى الحاجة إلى الاعتراف بأهمية الجنسية الطفلية وعقدة أوديب فضلاً عن ضرورة أي تحليل للطفولة. أما «أدلر» فقد بدا أكثر ابتعاداً عن التحليل النفسي؛ أنكر إنكاراً باتاً أهمية الجنسية، وردّ تكوين الخلق وأمراض العصاب إلى مبدأ واحد هو رغبة الناس في القوة وحاجتهم إلى تعويض ما بهم من نقص جبليّ، وألقى بكل الكشوف السيكولوجية التي توصل إليها التحليل النفسي أدراج الرياح. بيد أن ما نبذه عاد رغماً عنه إلى مذهبه المخلق متخذاً أسماءً جديدة، فهذا «احتجاج الذكورة» ما هو إلا الكبت متسماً بالجنسية دون مبرر. كان نقدي للخارجين نقداً رقيقاً؛ ولم أزد على أن أصررت على أن يعدل كل من «أدلر» و«يونيغ» عن تسمية نظريتهما «تحليلاً نفسياً». والآن بعد

(١) ليس الحال كذلك الآن وقد أشرنا في هامش سابق إلى وجود فروع للجمعية الدولية للتحليل النفسي هناك، وهي فروع تشمل معاهد للتدريب الجدي على التحليل النفسي وفقاً للقواعد المتبعة في معاهد التحليل النفسي في أوروبا. غير أن المعاهد الأمريكية لا تقبل إلا الأطباء لتدريهم، في حين أن هذا الأمر يجد بعض الاستثناء في بعض المعاهد الأوروبية. (المترجم)

(٢) تغير الحال عن وقت كتابة فرويد لهذا الكتاب فقد أدى تطور البحوث السيكولوجية إلى اقتراب النظرية السلوكية من التحليل النفسي وقامت محاولات لتفسير مفاهيم التحليل النفسي بمقتضى النظرية السلوكية. (المترجم)

مضى عشرة أعوام يمكننا أن نقرر أن هاتين المحاولتين ضد التحليل النفسى مرتتا دون أن تنالاه بسوء .

لو أن مجتمعاً قام على اتفاق على بعض النقط الرئيسية ، ثم خرج أناس على ذلك الأساس المشترك ، فمن الواضح ألا يصبحوا بعد ذلك منتسبين إلى ذلك المجتمع . بيد أن انشقاق تلاميذ قدماء عني ، غالباً ما اتخذ ضدى دليلاً على تعصبى لرأى أو اعتبر نذيراً بقدر ما معلق فوق رأسى . ويكنى ردّاً على ذلك أنه فى مقابل أولئك الذين هجرونى من أمثال « يونج » و « أدلر » و « شتيكل » و قليل معهم ، ظل عدد كبير من الرجال شأن « أبراهام » ، و « أيتنجتون » ، و « فرنترى » و « رانك » ، و « جونس » ، و « بريل » ، و « ساكس » ، و « پفيستر » ، و « فان إمدن » ، و « رايك » ، وغيرهم ، يعملون معى حوالى خمسة عشر عاماً فى تعاون مخلص وصداقة لا تنفصم عراها . على أنى لم أشر إلا إلى أقدم تلاميذى ، أولئك الذين كوّنوا لأنفسهم فعلاً اسماً لامعاً فى مؤلفات التحليل النفسى ؛ وإذا كنت قد أغفلت ذكر غيرهم ، فلا يؤخذ ذلك على أنه استهانة بهم ، فالواقع أنا نجد بين أولئك الناشئين والذين انضموا إلى آخرى مواهب نعلق عليها أكبر الآمال . ولكن أظن أن بوسعى أن أقول دفاعاً عن نفسى إن رجلاً متعصباً لرأيه ، يملكه اعتداد مكابر بأنه معصوم من الخطأ ، ما كان بوسعه مطلقاً أن يحتفظ بوفاء ذلك العدد الكبير من أذكاء القوم ، وبخاصة وإن كان مثلى لا يحظى إلا بالترى اليسير من المغريات العملية .

إن الحرب العظمى ، التى قضت على عدد كبير من الهيئات الأخرى ، لم تستطع أن تنال من « الجمعية الدولية » . أقيم أول اجتماع بعد الحرب سنة ١٩٢٠ فى « لاهاي » على أرض محايدة ، وقد كان من المؤثر أن نلمس إكرام الهولنديين وفادة الجياع المعوزين من رعايا دول أوروبا الوسطى ؛ وأعتقد أن هذه كانت أول مناسبة فى عالم مخرب يجلس فيها إنجليز وألمان إلى مائدة واحدة يتناولون بالنقاش الودى موضوعات علمية . وكانت الحرب سواء فى ألمانيا أو بلدان

غرب أوروبا قد أثارت بالفعل الاهتمام بالتحليل النفسى . لقد أفضت ملاحظة عصاب الحرب إلى فتح أعين الأطباء على أهمية المنشأ النفسى للاضطرابات العصبية ، وسرعان ما أتيح لبعض أفكارنا السيكولوجية مثل "منافع المرض" و "اللواذ بالمرض" ، أن تذيب . وكان آخر مؤتمر قبل سقوط ألمانيا ، وهو الذى عقد فى بودابست عام ١٩١٨ قد حضره ممثلون رسميون للحكومات حلف دول أوروبا الوسطى وقد وافقوا على إنشاء مراكز للتحليل النفسى لعلاج عصاب الحرب . ولكن ذلك الغرض لم يتحقق .

وكذلك فشلت المشروعات الشاملة التى أعدها أحد أعضائنا المبرزين ، دكتور « أنطون فون فرويند » ، لإقامة مركز للبحث والعلاج التحليلى فى بودابست بسبب الاضطرابات السياسية فى ذلك الحين و وفاة صاحبها الكريم فى سن مبكر . وبعد ذلك بفترة من الزمن قام بتنفيذ بعض مشروعاته « ماكس أيتنجتون » ، الذى أسس عيادة للتحليل النفسى فى برلين عام ١٩٢٠ . واستطاع « فرنترى » إبان الفترة القصيرة التى حكم فيها البلاشفة المجر أن يقوم بإلقاء محاضرات تعليمية موفقة بوصفه الممثل الرسمى للتحليل النفسى بجامعة بودابست . وبعد الحرب أعلن معارضونا فى سرور زائد أن الأحداث تمخضت عن برهان قاطع ينهى صحة نظريات التحليل . قالوا ، إن عصاب الحرب أثبت أن العوامل الجنسية ليست ضرورية فى تحليل الاضطرابات العصبية بيد أن انتصارهم كان سطحياً فجاً . فمن ناحية ، لم يستطع أحد أن يقوم بتحليل كامل لحالة واحدة من حالات عصاب الحرب ، فلم يعرف أى شى معرفة أكيدة بخصوص الدوافع ولم يكن بوسع أحد أن يخلص من هذا الجهل بنتيجة ما . فى حين أن التحليل النفسى ، من ناحية أخرى ، كان قد وصل قبل ذلك بكثير إلى فكرة الرجسية والعصاب الرجسى ، حيث يتعلق ليبيدو الشخص بذاته هو بدلاً من أن يتعلق بموضوع ما . ومع ذلك ، فقد نُعى على التحليل النفسى فى مناسبات أخرى أنه توسع دون حق فى فكرة الجنسية ،



صورة تذكارية أخذت في سبتمبر ١٩٠٩ بمدينة ورشستر بولاية ماساشوستس (الولايات المتحدة)

الجالسون من اليمين : يونج ، ستانلي هول ، فرويد

الواقفون « » : فرنترى ، إرنست جونز ، بريل

ولكن ، عد ما جاء الوقت المناسب للجدال ، نسيت هذه التهمة وعادوا بنا مرة أخرى إلى أضيق مفهوم للكلمة .

لو أغفلنا فترة التطهير التمهيدية ، لكان تاريخ التحليل النفسى فى نظرى يقع فى طورين . فى الطور الأول كنت أقف وحدى وكان علىّ أن أحمل وحدى العبء كله : كان ذلك منذ عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦ حتى عام ١٩٠٦ أو ١٩٠٧ وفى الطور الثانى ، الذى يمتد منذ ذلك الحين حتى الوقت الحاضر ، وفيه أخذت مساهمات تلاميذى وأعوانى تزداد أهمية ، حتى لأستطيع اليوم إذ يندرنى مرض عضال باقتراب النهاية ، أن أفكر هادئ البال فى توقف نشاطى الخاص . ولهذا السبب عينه ، يستحيل علىّ فى هذه الدراسة لسيرتى الخاصة أن أتناول على نحو تام تقدّم التحليل النفسى فى طوره الثانى كما فعلت مع نشأته التدريجية فى طوره الأول ، الذى كان متعلقاً بنشاطى الخاص وحده . وأرى أنه لا يحق لى هنا أن أشير إلا إلى تلك الكشف الجديدة التى لعبت فيها دوراً بارزاً ، وبخاصة ما تمّ منها فى مجال النرجسية ، ومجال نظرية الغرائز ، ومجال تطبيق التحليل النفسى على الذُّهان .

علىّ أن أبدأ بأن أضيف إلى ذلك أن تزايد الخبرة أبان أكثر وأكثر أن عقدة أوديب هى نواة العصاب . فهى قمة الحياة الجنسية الطفلية ونقطة الاتصال بجميع تطوراتها التالية . ولكن ، إن كان الأمر كذلك ، لم يعد لنا أن نتطلب من التحليل أن يكتشف عاملاً خاصاً فى تعليل العصاب . ولا بدّ أن يكون صحيحاً ، على نحو ما عبّر عنه « يونج » تعبيراً جيداً فى الأيام الباكورة حين كان لا يزال محلاً ، أن العصاب ليس له مضمون خاص ينفرد به ، بل إن العصابين ينهارون أمام نفس الصعوبات التى يفلح فى التغلب عليها الأسوياء من الناس . كان هذا الاكتشاف أبعد ما يكون عن أن يخيب الرجاء . إذ جاء منسجماً تمام الانسجام مع اكتشاف آخر هو : أن سيكلوجيا الأعماق التى كشف عنها التحليل النفسى هى فى الواقع سيكلوجيا العقل السوى . فكان سبيلنا يشبه ذلك الذى سلكته

الكيمياء إذ ردت الفروق الكيفية الكبيرة بين المواد إلى تغيرات كمية في نسب امتزاج العناصر نفسها .

في عقدة أوديب كان الليبيدو متعلقاً بصورة الوالدين . ولكن كان ثمة قبل ذلك فترة لم يكن فيها مثل هذه الموضوعات . أدّت هذه الحقيقة إلى فكرة (ذات أهمية جوهرية لنظرية الليبيدو) عن حالةٍ يملأ فيها ليبيدو المرء ذاته هو ويتخذها موضوعاً له . هذه الحالة يمكن تسميتها النرجسية أو حب الذات . ولو تأملنا لحظة لتبين لنا أن هذه الحالة لا تتلاشى أبداً تلاشياً تاماً . إذ تبقى ذات المرء طوال حياته مستودع الليبيدو الأكبر ، منه يصدر التعلق بالموضوعات (شُحَن الموضوعات) وإليه يمكن أن ترتدّ الليبيدو عن الموضوعات . وهكذا فالليبيدو النرجسى دائم التحوّل إلى ليبيدو موضوعي وبالعكس . وثم مثال رائع يصبور لنا إلى أي حدّ يمكن أن يذهب هذا التحوّل ، مثال الحب جنسياً كان أو عذرياً إذ يتضمن تضحية بالذات وبيننا كنا حتى ذلك الحين إذ ننظر في عملية الكبت نحصر الانتباه فيما هو مكبوت فحسب ، أمكن بفضل هذه الأفكار أن نكون فكرة أصحّ عن القوى الكابتة . كنا نذهب فيما مضى إلى أن الكبت يحدث بدافع غرائز المحافظة على الذات التي تعمل داخل الذات (غرائز الذات) وأن الغرض منه مقاومة الغرائز الليبيدية . أما وقد تبين الآن أن غرائز المحافظة على الذات هي أيضاً من طبيعة ليبيدية ، وأنها ليبيدو نرجسى ، اعتبرت عملية الكبت عملية تجري في نطاق الليبيدو بالذات ؛ وحيث أن الليبيدو النرجسى يعارض الليبيدو الموضوعي ، فإن المحافظة على الذات تقتضى مناهضة مطالب الحب الموضوعي ، أي مطالب الجنسية بالمعنى الضيق .

ليس لعلم النفس حاجة أشد من حاجته إلى نظرية مكيّنة في الغرائز يمكن على أساسها أن نمضي في البناء . ولكن شيئاً من ذلك لا وجود له ، مما اضطر التحليل النفسى إلى بذل الجهود محاولاً الوصول إلى مثل هذه النظرية . بدأ بتصوير تباين بين غرائز الذات (غريزة المحافظة على الذات ، كالجوع) والغرائز

الليبيدية (كالحب) ، ولكنه عدل عنه فيما بعد إلى تباين جديد بين الليبيدو النرجسى والليبيدو الموضوعى . ولم يكن ذلك طبعاً فصل المقال فى الموضوع ؛ إذ بدا أنه يستحيل لاعتبارات بيولوجية أن نقنع باقتراض وجود فئة واحدة من الغرائز . وفى المؤلفات التى تمت فى الأعوام التالية (ما بعد مبدأ اللذة ، نفسية الجماعة وتحليل الأنا ، الأنا والهوى) ، أطلقت العنان للميل إلى التفلسف الذى كبحتة زمناً طويلاً ، وأعملت فكرى فى حلّ جديد لمشكلة الغرائز . مزجت غريزتى المحافظة على الذات والمحافظة على الجنس فى فكرة إيروس ^(١) وجعلت قبالتها غريزة الموت أو الهدم التى تعمل فى صمت . والغريزة تعتبر بوجه عام ضرباً من المرونة فى الكائنات الحية ، نزوعاً إلى بعث موقف كان موجوداً من قبل ثم اضطرب نتيجة عامل خارجى . هذه الخاصية المحافظة للغرائز تتمثل فى ظواهر (التكرار القسرى) . فالصورة التى تعرضها الحياة علينا تنتج عن عمل إيروس وغريزة الموت متعاونين ومتعارضين .

وعلى هذه النظرية أن تثبت كفايتها . وعلى الرغم من أنها نشأت من الرغبة فى تثبيت عدد من أهم أفكار التحليل النفسى النظرية ، فقد تجاوزت حدود التحليل النفسى . سمعت مراراً أنه يقال فى ازدراء إن من المستحيل أن نركن إلى علم تفتقر مفاهيمه العامة إلى التحديد شأن فكرتى الليبيدو والغريزة فى التحليل النفسى . ولكن هذا المأخذ يستند إلى خطأ كلى فى تصور الوقائع . ذلك أن المفاهيم الرئيسية الواضحة والتعريفات الحاسمة لا سبيل إليها فى علوم النفس إلا إن حاولت هذه العلوم أن تدمج مجموعة من الحقائق فى إطار مذهب منطقي مسلّم به . إن هذا الوضوح والدقة فى المفاهيم العامة للعلوم الطبيعية — ومنها علم النفس — تزيّد بل أمر مستحيل . فلم يبدأ علم الحيوان وعلم النبات من تعريفات صحيحة ملائمة للحيوان والنبات ؛ ولا يزال علم الحياة إلى اليوم عاجزاً عن تعريف مفهوم الحياة تعريفاً أكيداً . بل إن الطبيعيات ذاتها ما كان يتسنى لها إحراز أى تقدم

(١) إله الحب والبهو فى الأساطير اليونانية القديمة . (المترجم)

إن كان عليها أن تنتظر حتى تبلغ مفاهيمها عن المادة ، والقوة ، والجاذبية ، وما إلى ذلك ، ما يرجى لها من وضوح ودقة . ذلك دائماً شأن المفاهيم الرئيسية أو أعم المبادئ في أى علم من العلوم ، تترك في بادئ الأمر دون تحديد وتشرح مبدئياً بالإشارة إلى ميدان الظواهر التي استخلصت منها ؛ ولا يمكن أن تتضح وتجد معنى بيئاً ثابتاً إلا بتحليل مادة الملاحظة باستمرار . كنت أشعر دائماً أنه ظلم جسيم أن يأبى الناس دائماً اعتبار التحليل النفسى كأى علم آخر . وقد أفصحوا عن هذا الرفض فيما أثاروا من اعتراضات شديدة المكابرة . عيب دائماً على التحليل النفسى نقصه وعدم اكتماله ، مع أنه من الواضح أن علماً يقوم على أساس الملاحظة ليس أمامه إلا أن ينجز كشوفه جزءاً جزءاً ، ويحل مشاكله خطوة خطوة . وكذلك عند ما سعت كى نعى بالوظيفة الجنسية ، تلك العناية التي منعت عنها زمناً طويلاً ، اتهمت نظرية التحليل النفسى بأنها « ترى الجنسية في كل شيء » . وعند ما أكدتُ أمراً طال إغفاله ، هو أهمية الدور الذى تلعبه المشاعر التي تعرض في الطفولة الباكرة ، قيل لى إن التحليل النفسى ينكر العوامل الخلقية والوراثية — الأمر الذى لم يخطر ببالى قط . لقد كان الأمر مجرد معارضة بأى ثمن وبأى طريقة .

كنت قد بذلت فعلاً في مراحل سابقة من عملى محاولات في سبيل الوصول إلى نظريات أعم ، بادئاً من ملاحظات التحليل النفسى . فقد وجهت النظر في مقال قصير هو « بيانات خاصة بمبدئى الحياة النفسية » الذى نشر في عام ١٩١١ إلى سيطرة مبدأ اللذة وتجنب الألم في الحياة النفسية ثم حلول ما يسمى مبدأ الواقع محله (ولم يكن في ذلك طبعاً أى جديد) . وبعد ذلك (١٩١٥ — ١٩١٧) حاولت تأليف « ما بعد علم النفس » . وكنت أقصد بذلك منهجاً في البحث يُنظر بمقتضاه إلى كل عملية نفسية من حيث علاقتها بثلاثة إحداثيات أطلقت عليها على التوالي الدينامى ، والطبوغرافى ، والاقتصادى ؛ وهي لى أن ذلك يمثل أبعد هدف يمكن أن يطمح علم النفس إلى بلوغه . ولكن المحاولة لم

تكتمل ؛ وبعد كتابة بحثين أو ثلاثة - " الغرائز وأطوارها " ، " الكبت " ،
 " اللاشعور " ، " الحداد والاكتئاب " ، إلخ . - توقفت ، وربما كان ذلك من
 الحكمة ، إذ لم يكن الوقت قد حان بعد لمثل تلك الإثباتات النظرية . وقد أخذتُ
 على عاتقي في أحدث أبحاثي النظرية مهمة تحليل جهازنا النفسى على أساس النظر
 التحليلى للوقائع المرضية فقسمته إلى أنا وهو وأنا أعلى ^(١) . والأنا الأعلى وريث
 عقدة أوديب ويمثل معايير الإنسان الأخلاقية .

لست أود أن يفهم من ذلك أنى خلال هذه الفترة الأخيرة من عملى تحولت
 عن الملاحظة المثابرة وأسلمت نفسى كليةً إلى الجدل النظرى . فقد بقيت
 دائماً على العكس على أوثق اتصال بالوقائع التحليلية ولم أكف عن دراسة
 التفاصيل ذات القيمة الإكلينيكية أو الفنية . وحتى عند ما ابتعدت عن
 الملاحظة ، تجنبت فى حذر أى انغماس فى صميم الفلسفة . وكان ما فطرت
 عليه من عجز فلسفى خير ميسر لهذا التجنب ، كان بوسعى تفهم أفكار
 « ج . ت . فخر » وقد تبعت هذا المفكر فى كثير من النقط الهامة . إن الاتفاق
 الكبير بين التحليل النفسى وبين فلسفة « شوپنهاور » - ذلك أنه لم يؤكد فحسب
 سيطرة الانفعالات والأهمية القصوى للجنسية بل فطن أيضاً إلى عملية الكبت -
 لا ينبغى أن يردّ إلى وقوفى على تعاليمه . فقد قرأت « شوپنهاور » فى وقت جد متأخر
 من حياتى . أما « نيتشه » ، ذلك الفيلسوف الذى طالما تتفق تخميناته وأحداسه
 اتفاقاً عجبياً مع كشوق التحليل النفسى الشاقة ، فقد تجنّبته زمناً طويلاً لنفس
 هذا السبب ؛ لقد كان كلنى بمسألة السبق أقل من كلنى بالمحافظة على حرية
 ذهنى .

كان العصاب موضوع التحليل الأول ، وقد بقى الموضوع الوحيد
 زمناً طويلاً . ولا يسع أى محتل نفسى أن يشك فى أن مهنة الطب كانت
 مخطئة فى فصلها هذه الاضطرابات عن الذهان وإلحاقها بالأمراض العصبية

(١) كتاب « الأنا والهو » .

العضوية . إن نظرية العصاب تنتمي إلى الطب النفسى وهى مقدمة له لا غنى عنها . غير أنه قد يبدو أن دراسة الذُّهان دراسة تحليلية أمر غير عملى نظراً لافتقارها إلى النتائج العلاجية . فليس لمرضى العقل على العموم القدرة على اتخاذ موقف النقل الموجب ، ومن ثمة لا سبيل إلى أن تطبق عليهم أداة الفن التحليلى الرئيسية . ومع ذلك فثمة من الوسائل ما يمكننا من تناول الذهان . فالغالب أن النقل لا يغيب غياباً كاملاً وإنما يمكن استخدامه إلى حد ما ؛ وقد أحرز التحليل نجاحاً لا شك فيه فى الانهباط الدورى ، وأطوار البارانويا الخفيفة ، وحالات الفصام الجزئية . وقد أفاد العلم — على الأقل — من تردد التشخيص فى كثير من الحالات مدّة طويلة بين تقرير وجود عصاب نفسى أو جنون مبكر ؛ ذلك أن المحاولات العلاجية فى مثل هذه الحالات أفضت إلى كشف قيمة قبل أن تتوقف . ولكن الاعتبار الرئيسى بهذا الصدد هو أن كثيراً من الأمور التى لا مناص من البحث عنها فى الأعماق بحثاً شاقاً فى حالات العصاب توجد على السطح فى حالات الذُّهان ، بوسع كل امرئ أن يراها . حتى أن أحسن الحالات للبرهنة على كثير من قضايا التحليل النفسى يزودنا بها الطب النفسى الإكلينيكى . وهكذا لم يكن مناص أن يجد التحليل النفسى سبيله منذ وقت مبكر إلى موضوعات الملاحظة الطبية للأمراض العقلية . فقد استطعت فى تاريخ مبكر جداً (١٨٩٦) أن أقرر فى حالة جنون ذى سمات بارانويا وجود نفس العوامل المسببة ونفس العقد الانفعالية التى توجد فى حالات العصاب . وفسّر « يونج » عدداً بالغ الإلغاز من الأفعال المتكررة على وتيرة واحدة ^(١) لدى المجانين ببيان العلاقة بينها وبين تاريخ حياة المرضى ؛ وبرهن « بلويلر » على وجود عمليات فى مختلف أنواع الذُّهان كتلك التى اكتشف التحليل وجودها لدى العصائيين . ومنذ ذلك الحين لم يألُ المحللون جهداً فى سبيل الوصول إلى فهم الذُّهان . وقد عمدوا فى بعض مشاكل الذُّهان ، وبخاصة منذ أمكن استخدام

فكرة الرجسية إلى أن يظفروا بلمحات إلى ما وراء الستار . ولا غرو أن القسط الأكبر من ذلك حققه « أبراهام » في توضيحه للاكتئاب الذهاني . حقاً إن كل ما عرفناه في هذا المجال لم يستحل بعد إلى قوة علاجية ؛ بيد أن مجرد الكسب النظري أمر لا يستهان به ، وعلينا أن نقنع بالانتظار ريثما يطبق تطبيقاً عملياً . وبمضي الزمن لم يقو أطباء العقل أنفسهم على مقاومة قوة الإقناع التي تنطوي عليها حالاتهم الكلينيكية الخاصة . وها هو الطب النفسي الألماني اليوم هدف "لتغلغل سلمى" للنظريات التحليلية . وبينما يصرح هؤلاء الأطباء دوماً بأنهم لن يكونوا أبداً محللين نفسيين ؛ وأنهم لا ينتمون إلى المدرسة "السنية" ولا يقرّون مبالغاتها ، وأنهم لا يؤمنون على وجه الخصوص بسيطرة العامل الجنسي ، فإن أغلب الناشئين منهم يتخذون هذا الجزء أو ذاك من النظرية التحليلية ويطبقونه بطريقتهم الخاصة على حالاتهم . إن الدلائل كلها تبشر بقرب حدوث تطورات أخرى في نفس الاتجاه .



« السبع خواتم »

فرويد بين تلامذته المقربين

الجالسون من اليمين : ساكس ، فرنزى ، فرويد . الواقفون من اليمين : جونز ، آيتنجون ، أبراهام ، رانك .
وقد اشتهرت هذه الصورة باسم « السبع خواتم » لأن فرويد كان قد أهدى إلى كل من
تلاميذه الستة حجراً أثرياً ليرصع به خاتماً ، كذلك الذى يحمله فرويد ، فيكون ذلك رمزاً
للرباط الوثيق الذى ينظمهم فى حلقة تعمل على دعم حركة التحليل النفسى .

الفصل السادس

إني لأرغب الآن من بعيد استجابات لها دلالتها صاحبت دخول التحليل النفسى إلى فرنسا التى ظلت معرضة عنه زمناً طويلاً . ويهيا لى أننى الآن أعيش من جديد شيئاً عشته قبل ذلك وإن كان له برغم ذلك سماته الخاصة . فثم اعتراضات فى غاية السذاجة ، مثال ذلك أن الحساسية الفرنسية يسيئها ما فى مصطلحات التحليل النفسى من تصنع علمى وفجاجة (ذلك يذكر المرء لا محالة بفارس « لسنج » الخالد « ريكو دى لا مارلنيير »)^(١) . وأخطر من ذلك تعليق آخر ، تعليق لم يتورع عن ذكره أستاذ علم النفس بالسربون هو أن : منهج التحليل النفسى فى التفكير لا يناسب فى مجموعه العقلية اللاتينية . وواضح أن فى ذلك التعليق استهانة بالأنجلوساكسون حلفاء فرنسا ، الذين يُعدُّون مؤيدين للتحليل . إن من يسمع هذه الملاحظة لا بد أن يتصور أن التحليل النفسى كان دائماً الابن الأثير للعقلية الجرمانية ، التى احتضنته منذ لحظة الميلاد .

بدأ الاهتمام بالتحليل النفسى فى فرنسا بين رجال الأدب . ولا بد كى نفهم ذلك أن نذكر أنه منذ كتابة "تأويل الأحلام" لم يعد التحليل النفسى موضوعاً طبيئاً خالصاً . فبين ظهوره فى ألمانيا وظهوره فى فرنسا يقع تاريخ تطبيقاته العديدة على فروع الأدب والجماليات ، وعلى تاريخ الأديان وما قبل التاريخ ، وعلى علم الأساطير والأدب الشعبى ، وعلى التربية ، وهكذا . ولا صلة لأى من هذه الأمور بالطب ، إنما تتصل به عن طريق التحليل النفسى وحده . لا محل

(١) الجندى الفرنسى الكوميدي المخطوط فى « مناقون بارنهم » الذى ذهل عندما وصفت براعته اليدوية فى لعب الورق بأنها غش إذ قال : " كيف يا آنسى؟ كيف تسمين ذلك غشا ؟ أيسمى الألمان إصلاح البخت ، والقبض عليه بالأصابع ، وضمان فعله غشاً ؟ غش ! أوه ، ما أفقرها وأفجها من لغة الألمانية ! "

إذن أن أتناولها بالتفصيل في صفحات هذا الكتاب الذى قصد به أصلاً أن يكون ضمن مجموعة سِيرَ طبية ، ومع ذلك فليس بوسعى أن أغفلها كلية نظراً لأنها من ناحية لا بدّ عنها لآى تقدير صحيح لطبيعة التحليل النفسى وقيمته ، فضلاً عن أنى أخذت على عاتقى أن أقدم بياناً بالعمل الذى أدبته فى حياتى . توجد بدايات معظم تلك التطبيقات فى مؤلفاتى . فقد قطعت من الطريق شوطاً هنا وهناك حتى أشبع ميولى غير الطبية . وفيما بعد سار فى إثرى غيرى (لا من الأطباء فحسب بل ومن الأخصائيين فى مختلف الميادين كذلك) وتعمقوا مختلف العلوم . ولكن حيث أن منهاجى يفرض علىّ أن أقصر على الإشارة إلى نصيبى الخاص من تطبيقات التحليل النفسى هذه ، فلست أستطيع أن أعطى عن مداها وأهميتها غير صورة جد ناقصة .

أوحى إلىّ عقدة أوديب التى تجلّى لى شيئاً فشيئاً أنها ظاهرة نفسية عامة ، بأمور عدة . فقد بدا اختيار الشاعر^(١) أو اختراعه لهذا الموضوع الرهيب أمراً ملغزاً ، وكان ملغزاً أيضاً ما خلفته التمثيلية المستمدة منه من أثر عنيف فى نفوس جمهور المشاهدين ، وكذلك طبيعة تلك التراجيديات الخاصة بالقدر . ولكن أمكن تفسير كل ذلك عند ما تحقق المرء أن ثمة قانوناً عاماً فى الحياة النفسية أدركه الشاعر بكل ما ينطوى عليه من دلالة وجدانية . فما القدر والنبوءة غير تحقيق فى الخارج لضرورة باطنة ؛ وأما أن البطل يأثم دون أن يدرك وعلى الرغم من نواياه فمن الجلى أن ذلك تعبير ملائم عن الصفة اللاشعورية لميوله الإجرامية . ومن فهمنا لتراجيديا القدر هذه خطونا خطوة أخرى هى فهم تراجيديا الشخصية الإنسانية — تراجيديا هاملت التى ظلت موضع الإعجاب ثلاثمائة عام دون أن يُكتشف معناها أو يُفطن إلى دوافع مؤلفها . ويستحيل أن يكون الشاعر^(٢) قد أنتج بمحض الصدفة تلك الشخصية العصابية^(٣) التى انهارت أمام

(١) سوفوكليس واضع تراجيديا أوديب ملكا (المترجم)

(٢) شكسبير ، مؤلف تراجيديا هملت . (المترجم)

(٣) شخصية هملت . (المترجم)

عقدة أوديب شأن عدد لا يحصى من مثيلاتها في الحياة الواقعية ؛ فقد واجه هاملت مهمة الانتقام من شخص آخر^(١) لارتكابه فعلتين هما موضوع الرغبات الأوديبية ، وإزاء هذه المهمة شلت يده بسبب شعوره الغامض بالذنب . كتب « شكسبير » هاملت بعد وفاة أبيه بفترة وجيزة . وقد حدث ملاحظاتي الخاصة بتراچيديا هاملت « يارنست جونز » فيما بعد إلى القيام بتحليل كامل لهذه التراچيديا ، ثم حذا حذوه « أوتورانك » فاتخذ من هذه الملاحظات مقدمة لبحثه تخير كُتَّاب الدراما لموضوعات رواياتهم . وقد استطاع في كتابه الضخم عن مسألة المحارم أن يبين كيف أن الشعراء طالما اتخذوا مسائل الموقف الأوديبى موضوعاً لهم ، وتتبع في مختلف الآداب الكيفية التى اتبعت في تحويل المادة وتعديلها وتخفيفها .

كان الحال يجرى بالانتقال من ذلك إلى محاولة تحليل الإبداع الشعري والفنى بوجه العموم . فقد اتضح أن مملكة الخيال ملجأ يؤسس إبان الانتقال المرير من مبدإ اللذة إلى مبدإ الواقع كى يقوم مقام إرضاء الغرائز التى ينبغى الإقلاع عنها فى واقع الحياة . الفنان كالعصابى ، ينسحب من واقع لا يرضى إلى دنيا الخيال هذه ؛ ولكنه على خلاف العصابى ، يعرف كيف يقفل منه راجعاً ليجد مقاماً راسخاً فى الواقع . ومنتجاته ، أعنى الأعمال الفنية ، إشباع خيالى لرغبات لاشعورية شأنها شأن الأحلام ؛ وهى مثلها محاولات توفيق ، حيث إنها بدورها تعهد كى تتفادى أى صراع مكشوف مع قوى الكبت . ولكنها تختلف عن منتجات الحلم الرجسية اللااجتماعية من حيث أن المقصود بها إثارة اهتمام الغير وأن بوسعها أن تستثير وترضى فيهم بدورهم الرغبات اللاشعورية نفسها . وزيادة على ذلك فهى تستفيد من اللذة الحسية للجمال الشكلى بوصفها "جائزة مغرية" . وإن ما يفعله التحليل النفسى هو أن يأخذ العلاقات المتبادلة بين ما تأثر به الفنان فى حياته ، وخبراته العارضة ، ومنتجاته ،

(١) عم هملت الذى دبر قتل أبيه (أب هملت) ثم تزوج أمه . (المترجم)

ويستخلص منها نفسيته وما يعتمل فيها من دوافع – أى ، ذلك الجزء من نفسه الذى يشارك فيه الناس جميعاً . مثال ذلك أننى – واضعاً هذا الهدف نصب عيني اتخذت من «ليوناردو دافينشى» موضوعاً للدراسة ، يستند إلى ذكرى واحدة من ذكريات الطفولة قصتها هو ، ويهدف أساساً إلى تفسير صورته «القديسة أنا مع العذراء الطفل» . ولا يبدو أن المعرفة التى تكتسب من مثل ذلك التحليل تفسد علينا الاستمتاع بإنتاج فى ما . إن الفرد العادى قد يتوقع من التحليل بهذا الصدد أكثر من اللازم ، إذ لا بد من التسليم بأنه لا يوضح ما قد يعتبر أهم مشكلتين بالنسبة إليه . فالتحليل لا يملك أن يكشف عن طبيعة الموهبة الفنية ، ولا هو يستطيع أن يبين الوسيلة التى يستخدمها الفنان – أى الأسلوب الفنى .

أمكننى أن أبين من قصة قصيرة كتبها « و . جنسين » هى « جراديثا » التى لا قيمة لها فى ذاتها ، أن الأحلام المختلقة يمكن تأويلها على نحو تأويل الأحلام الحقيقية ، وأن العمليات اللاشعورية المألوفة لنا فى « إنتاج الحلم » تتم على النحو نفسه كذلك فى عمليات التأليف الخيالى . وكان كتابى عن النكتة وعلاقتها باللاشعور عملاً جانبياً استمد بطريق غير مباشر من كتاب « تأويل الأحلام » . فقد لفت نظرى صديقى الوحيد الذى كان مهتماً فى ذلك الحين بعملى أنه طالما خطر له أن تأويلاتى للأحلام تشبه النكت . وكى ألقى بعض الضوء على ذلك الخاطر ، شرعت فى فحص النكت فوجدت أن جوهرها كامن فى الطرق الفنية المستخدمة فيها ، وأن تلك الطرق هى بعينها الوسائل التى تستخدم فى « إنتاج الحلم » – أعنى التكثيف ، الإزاحة ، تمثيل شىء ما بضدّه أو بتفاهة ما ، وهكذا . وأدى بى ذلك إلى بحث اقتصادى عن مصدر ذلك القدر الكبير من اللذة المستمدة من سماع نكتة ما . فتبين أنه يرجع إلى التخلي مؤقتاً عن بذل الجهد فى الكبت نظراً إلى ما فى النكتة من إغراء بمنح جزاء من اللذة (اللذة المبدئية) .

وإنى لأعلق أهمية كبرى على مشاركائى فى سيكولوجيا الدين ، تلك التى استهلت عام ١٩٠٧ بعقد تشابه ملحوظ بين عصاب الوسوسة وبين الطقوس



منزل فرويد الريفى فى برختسجادن

والشعائر الدينية . وقبل أن أفهم الصلات العميقة ، وصفت عصاب الوسوسة بأنه دين خاص مشوّه والدين بأنه بمثابة عصاب وسواسى عام . ثم أدت بي ملاحظات « يونج » الصريحة عام ١٩١٢ فى المشابهات القوية بين منتجات العصابين النفسية وبين منتجات الشعوب البدائية إلى توجيه انتباهى إلى ذلك الموضوع . فبينت فى أربع رسائل ، جمعت فى كتاب بعنوان ” الطوطم والتابو “ ، أن الفرع من الاتصال بالمحارم أبرز لدى الأجناس البدائية منه لدى المتمدينة وأنه أدى إلى اتخاذ إجراءات خاصة للوقاية منه ؛ فحصدت الصلات بين نواهى التابو (أقدم صور القيود الأخلاقية) وبين الازدواج العاطفى ؛ فاكتشفت فى التصوّر البدائى للكون الذى ينسب الإرادة للجملادات مبدأ المغالاة فى تقدير أهمية الواقع النفسى ، مبدأ ” القدرة المطلقة للأفكار “ ، الذى يوجد بدوره فى أساس السحر . ومضيت فى مقارنته نقطة نقطة بعصاب الوسواس المتسلط ، فبينت أن كثيراً من مسلّمات الحياة النفسية البدائية لاتزال فعالة فى ذلك الاضطراب الغريب . ولكن أكثر ما اجتذبنى الطوطمية ، أول أساليب النظام الاجتماعى فى القبائل البدائية ، أسلوب اتحدت فيه بدايات النظام الاجتماعى بدين ساذج وسيطرة صارمة لعدد ضئيل من نواهى التابو . فى ذلك النظام الكائن المقدس هو دائماً أبداً حيوان ، تدعى القبيلة أنها انحدرت منه . ومن الدلائل كثير يثبت أن كل جنس من الأجناس أياً كانت درجة رقبه ، قد مرّ لاحالة بطور الطوطمية هذا .

كانت المصادر الرئيسية التى اعتمدت عليها فى دراساتى فى هذا الميدان ، هى كتب « ج. ج. فريزر » المشهورة ” الطوطمية والزواج الخارجى “ ثم ” الغصن الذهبى “ ، وهى كنز من الحقائق والآراء النفسية . ولكن « فريزر » لم يكن له غير أثر ضئيل فى توضيح مشاكل الطوطمية ؛ فكثيراً ما عدّل تعديلاً جوهرياً فى آرائه فى هذا الموضوع ، وكذلك بدا علماء الأجناس وما قبل التاريخ فى شكٍّ وخلاف فيما بينهم . كانت نقطة بدايتى هى ذلك التقابل البارز بين الأمرين

الذين حرمتهم الطوطمية (أعنى تحريم قتل الطوطم وتحريم الاتصال الجنسي بأية امرأة من عشيرة الطوطم نفسها) وعنصرى عقدة أوديب (قتل الأب واتخاذ الأم زوجاً) . فأغرانى ذلك أن أساوى الطوطم الحيوان بالأب ، والواقع أن الشعوب البدائية ذاتها تفعل ذلك صراحةً ، إذ تقدسه بوصفه الأب الأول للعشيرة . وبعد ذلك جاءت لمعوتى واقعتان من التحليل النفسى ، إحداهما حالة طفل عرضت « لفرنترى » عفواً ، بررت لنا القول "بعودة طفلية إلى الطوطمية" ، والأخرى تحليل مخاوف الأطفال من الحيوانات ، التى غالباً ما تُبين أن الحيوان بديل من الأب ، بديل حوّل إليه الخوف من الأب ، الخوف الذى تتضمنه عقدة أوديب ولم يبق لى إلا القليل كى أقرر أن قتل الأب هو نواة الطوطمية ونقطة البداية فى نشأة الديانة .

استوفيت هذا العنصر الناقص عند ما اطلعت على كتاب « و. روبرتسون سميث » "ديانة الساميين" . أوقفنا المؤلف (وهو موهوب جمع بين العلم الطبيعى والإحاطة بالكتاب المقدس) على ما يُعرف بوليمة الطوطم باعتبارها جزءاً رئيسياً فى الديانة الطوطمية . يُقتل الحيوانُ الطوطمُ ، الذى كان من قبل مقدساً ، مرةً كل عام ، يُقتل فى مراسم خاصة على مرأى من جميع أعضاء العشيرة ، ويُلْتَهَمُ ثم يباح عليه بعد ذلك ، ويعقب الحداد احتفال كبير . وعند ما تأملتُ بعد ذلك فرض « دارون » أن الناس فى الأصل كانوا يعيشون قبائل ، كل منها تحت سيطرة رجل واحد قوى ، عنيف ، غيور ، خطر لى من كل هذه العناصر الفرض التالى أو بالأحرى الرؤيا التالية : حيث أن أب القبيلة كان طاغية لا حدّ لسلطانه ، فقد استولى لنفسه على جميع النساء ؛ وحيث أن أولاده كانوا غرماء خطراً عليه ، فقد قتلهم أو نفاهم . بيد أن الأبناء تجمعوا ذات يوم واثمروا على أن يقهروا أباهم ، ويغتالوه ثم يفترسوه ، أباهم الذى كان لهم عدواً ومثلاً أعلى فى نفس الوقت . وبعد أن تمّ لهم ما أرادوا دبّ الخلاف بينهم فعجزوا عن الاضطلاع بما ورثوا . ولكنهم استطاعوا تحت تأثير الإخفاق والندم أن يصلحوا ذات بينهم ،

وينتظموا في قبيلة من الإخوة مستعينين بقوانين الطوطمية ، التي تهدف إلى تجنب تكرار مثل هذه الفعلة ، وأجمعوا أمرهم على أن يتخلوا عن امتلاك النساء اللاتي من أجلهن اغتالوا أباهم . وكان عليهم بعدئذ أن يلتمسوا نساءً غريبات ، وذلك هو الأصل في الزواج الخارجي الذي يتصل اتصالاً وثيقاً بالطوطمية . وما وليمة الطوطم غير إحياء ذكرى الفعلة الرهيبة التي نبع منها شعور الإنسان بالذنب (أو " الخطيئة الأولى ") وكانت مبدأ التنظيم الاجتماعي ، والديانة ، والقيود الأخلاقية في آن واحد .

والآن سواء تصورنا أن احتمالاً هذا شأنه كان واقعة تاريخية أو لم يكن ، فهو قد أدخل نشأة الدين ضمن مجال عقدة الأب وأقامه على أساس الازدواج العاطفي الذي يسيطر على هذه العقدة . وبعد أن لم يعد الحيوان الطوطم يقوم مقام الأب ، أصبح هذا الأب - موضع الخوف والبغض ، والتقديس والغيرة في آن واحد - أصبح نموذجاً أولياً للإله ذاته . وقام في نفس الإبن صراع بين التردد على أبيه وبين محبته له خلال محاولات متتالية للتوفيق بينهما ، بغية التكفير عن فعلة اغتيال الأب من ناحية ، وتدعيم المنافع التي أثمرت عنها من ناحية أخرى . هذه النظرة للديانة تلقى ضوءاً قوياً على الأساس السيكولوجي للديانة المسيحية ، التي لا تزال وليمة الطوطم توجد فيها مع تحريف ضئيل على شكل التناول ^(١) . وأودّ أن أذكر صراحة أن تلك الملاحظة الأخيرة لم تكن ملاحظتي أنا بل توجد في مؤلفات « روبرتسون سميث » و « فريزر » .

اتخذ « تيودور رايبك » و « ج . روهيم » عالم الأجناس ، الاتجاه الفكري الذي رسمته في " الطوطم والتابو " ، وقاما في سلسلة من المؤلفات الهامة بتنميته وتوسيعه أو تصحيحه . وقد عدت إليه أنا غير مرة منذ ذلك الحين ، إبان بحثي في " الإحساس اللاشعوري بالذنب " (الذي يلعب أيضاً دوراً هاماً مع غيره من دوافع العصاب) وفيما قمت به من محاولات لتقريب الصلة بين

(١) تناول القربان المقدس .

علم النفس الاجتماعى وعلم نفس الفرد ^(١) . واستفدت فضلاً عن ذلك من فكرة تراث قديم تخلف عن عصر "القبيلة الأولى" من تطور الإنسانية في تفسير القابلية للتنويم .

ولم يكن لى من نصيب مباشر فى غير ذلك من تطبيقات التحليل النفسى إلا قدرًا ضئيلاً ، بالرغم من أنها ليست أقل أهمية . إن هى إلا خطوة واحدة بين أخيلة العصاة وبين أخيلة الجماعات والشعوب كما نجد لها فى الأساطير ، والقصص ، والحكايات الخرافية . فأصبح علم الأساطير مجالاً خاصاً «لأوتورانك» ؛ فتأويل الخرافات ، وردُّها إلى عقد الطفولة اللاشعورية المألوفة ، والاستعاضة عن التفسيرات التنجيمية باكتشاف الدوافع الإنسانية ، كل ذلك يرجع إلى حدٍّ كبير إلى جهود التحليلية . وكذلك وجد موضوع الرمزية كثيراً من الدارسين بين أتباعى . وأوجدت الرمزية أعداء كثيرين للتحليل النفسى ؛ فلم يكن بوسع كثير من الباحثين ذوى العقلية المتزمته أن يغفروا للتحليل النفسى إقراره للرمزية ، الأمر الذى نتج عن تأويل الأحلام . ولكن التحليل النفسى براء من اكتشاف الرمزية ، فقد كانت معرفة منذ أمد بعيد فى مواطن فكرية أخرى (مثل الأدب الشعبى ، والخرافات ، والأساطير) والدور الذى تلعبه فيها أكبر منه فى "لغة الأحلام" .

لم أسهم أنا بشيء فى تطبيق التحليل فى التربية . ولكن كان من الطبيعى أن تجتذب الكشوف التحليلية الخاصة بالحياة الجنسية للأطفال وتطورهم النفسى انتباه المربين وتجعلهم يرون مشاكل التربية فى ضوء جديد . فكان الدكتور «أوسكار پفيستر» الراعى البروتستانتي بزيورخ سباقاً لا يكلُّ فى هذا المضمار ، شق طريقه دون أن يرى ثمة تعارضاً بين استخدام التحليل وبين الاحتفاظ بدينه ، ولو أن ذلك كان فى الحقيقة على نحو متسام . وأذكر من الكثيرين الذين سايروه فى عمله «الدكتورة هنج هلموت» والدكتور «س . برنفلد»

(١) «الأنا والهو» ، و «علم النفس الاجتماعى وتحليل الأنا» . (المترجم)

وكلاهما من قيينا^(١). أما تطبيق التحليل في تربية الأطفال تربية وقائية وإصلاح أولئك الذين ، برغم أنهم ليسوا عصاةيين بالفعل إلا أنهم حادوا عن سواء النمو ، فقد أفضى إلى نتيجة واحدة ذات أهمية عملية . فلم يعد ممكناً قصر مزاولة التحليل النفسى على الأطباء وحرمان غيرهم منه . بل إن أى طبيب لم يتلق تدريباً خاصاً ، يعدّ على الرغم من شهادته غير طبيب في التحليل ، في حين أن من ليس طبيباً وتلقى تدريباً ملائماً ؛ بوسعه مع الرجوع عند اللزوم إلى طبيب ما ، أن يضطلع بالعلاج التحليلي ، لا الأطفال فحسب بل والعصاةيين أيضاً .

مر التحليل النفسى بعملية تطور لم تكن ثمّ جدوى في معارضتها ، حتى أصبح لفظ " التحليل النفسى " ذاته لفظاً مبهماً . فبعد أن كان في الأصل اسماً لوسيلة علاجية خاصة ، أضحي الآن فضلاً عن ذلك اسماً لعلم ، هو علم العمليات النفسية اللاشعورية . يتعذر على هذا العلم في ذاته أن يتناول مشكلة ما تناولاً كاملاً ، ولكن يلوح أن مصيره إلى تقديم معونة قيمة في عديد من فروع المعرفة . وإن مجال تطبيق التحليل النفسى لا يقل اتساعاً عن مجال تطبيق علم النفس ، الذى يعتبر التحليل النفسى له مكملًا عظيم الأهمية .

وهكذا يحق لى أن أقول عند ما أُرّجع البصر إلى ما أدبته في حياتى من أعمال ، أننى وضعت كثيراً من البدايات وأوحيت بكثير من الأمور ، التى سيخرج منها شىء في المستقبل ولو أنه لا يسعنى أن أتكهّن كثيراً يكون أم قليلاً . وعلى أية حال ، أستطيع أن أعرب عن رجائى في أن أكون قد شققت الطريق إلى تقدم هام في المعرفة الإنسانية .

(١) مذكرة إضافية ، عام ١٩٣٥ : منذ كتابة هذه الكلمات كسب تحليل الأطفال على الخصوص اندفاعاً قوياً بفضل بحوث السيدة « ميلانى كلاين » وابنتى « آنا فرويد » .

تذييل (١٩٣٥)

لعل المشرف على هذه السلسلة من السير الخاصة لم يخطر بباله ، على ما أعلم ، أنه بعد انقضاء فترة من الزمن قد يلحق بأحدها تذييل له ؛ ولعل ذلك ما لم يحدث إلا في كتابي هذا . إذ اضطلعت بهذه المهمة لأن ناشري الأمريكي رغب أن ينشر هذا المؤلف الصغير في طبعة جديدة . وقد ظهر لأول مرة في أمريكا عام ١٩٢٧ (نشر برنتانو) تحت عنوان « دراسة سيرتي الخاصة » ، أصدر دون وجه حق في مجلد واحد يضم بحثاً آخر « مشكلة قيام غير الأطباء بالتحليل » ، أطلق عنوانه على الكتاب في مجموعته فأخفى بذلك هذا المؤلف . تتضمن هذه الصفحات مسألتين : تاريخ حياتي ، وتاريخ التحليل النفسي . وهما يتشابكان في نسيج واحد . فدراسة حياتي الخاصة تبين كيف كان التحليل النفسي كل ما تنطوي عليه حياتي ، وتقرر بحق أن خبراتي الشخصية ليست لها أهمية إن قورنت بصلاحي بذلك العلم . وقد هيئ لي قبل أن أكتب هذه الدراسة بوقت وجيز أن حياتي توشك أن تنتهي بسبب مرض خبيث عاودني ؛ ولكن براعة الجراحة أنقذتني عام ١٩٢٣ فأتيح لي أن أواصل حياتي وعلمي ، ولكن في غير برء من الألم . ومنذ ذلك الحين لم أتوقف عن عملي التحليلي أو عن التأليف لفترة تزيد عن عشرة أعوام والدليل على ذلك أنني أنجزت المجلد الثاني عشر من الطبعة الألمانية لمجموع مؤلفاتي . ولكنني أرى أن تغيراً ذا بال طرأ عليّ . ذلك أن الحيوط التي تشابكت فيما بينها إبان تطوري ، بدأت في ذلك الحين تنفصل ؛ فالاهتمامات التي اكتسبتها في الشطر الأخير من حياتي أخذت تتقهقر ، في حين عادت إلى البروز الاهتمامات القديمة الأصلية . حقاً إنني أنجزت في ذلك العقد الأخير أطرافاً هامة من البحث التحليلي ، كمراجعة مشكلة القلق في كتابي « التعطيل والعرض والقلق » المنشور

عام ١٩٢٦ أو كالتفسير البسيط « للتهيج الجنسي الشاذ من أشياء معينة كالملابس »
الذى استطعت كتابته عام ١٩٢٧ . ولكن لا بدّ لى أن أقول إنه منذ وضعت
فرضى القائل بوجود ضربين من الغريزة (غريزة الحب وغريزة الموت) ، ومنذ
اقترحت تقسيم الشخصية النفسية إلى ذات ، وذات عليا ، وهو ، (عام ١٩٢٣)
لم أضف شيئاً جديداً حاسماً إلى التحليل النفسى :

فكل ما كتبه فى الموضوع منذ ذلك الحين هو إما غير جوهري وإما كان
يمكن لغيرى أن يكتشفه بعد قليل . وقد ترتب ذلك على تغيير طرأ على نفسى ،
تغيير قد يوصف بأنه طور من أطوار الارتداد فى تطورى . إذ رجعت اهتمامى ، بعد
جولة استغرقت عمراً بأكمله خلال العلوم الطبيعية ، والطب ، والعلاج النفسى ،
إلى المشاكل الثقافية التى طالما اجتذبتنى من قبل ، حينما كنت لا أزال يافعا لم
يكد يتهيأ بعد للتأمل . فكنت قد حاولت بالفعل ، وأنا فى قمة عملى التحليلى
النفسى عام ١٩١٢ ، أن أستفيد من أحدث كشوف التحليل فى البحث عن
أصول الدين والأخلاق ، وذلك فى كتاب « الطوطم والتابو » . ومضيت الآن بهذا
العمل مرحلة أخرى فى رسالتين ظهرتتا بعد ذلك « مستقبل وهم » (١٩٢٧)
و « المدنية ومتاعبها » (١٩٣٠) . فأدركت فى وضوح متزايد أن أحداث التاريخ
البشرى ، والتفاعلات فيما بين الطبيعة البشرية ، والنمو الثقافى ، ورواسب خبرات
العصور الأولى (وأبرز مثل لها الديانة) إن هى إلا انعكاس للصراع الدينامى بين
الذات ، والهوى ، والذات العليا ، ذلك الصراع الذى يدرسه التحليل النفسى فى
الفرد — وأنها تكرار العمليات نفسها على نطاق أوسع . وفى «مستقبل وهم» أعربت
عن تقديرى للدين سلبىً فى جوهره . ثم وجدت فيما بعد صيغة أعدل فى تقدير
الدين .

إذ مع التسليم بأن قوة الدين تكمن فيما ينطوى عليه من صدق ، بينت أن
ذلك الصدق ليس صدقاً مادياً ولكنه صدق تاريخى .

هذه الدراسات ، التى ، برغم كونها صدرت عن التحليل النفسى ، إلا أنها



١
فرويد يراجع مرفقات كتابه « موسى والوحدانية »

تتجاوز حدوده تجاوزاً بعيداً ، ربما كانت أكثر من التحليل النفسى ذاته كسباً
لرضى الجمهور . وربما لعبت دوراً فى خلق ذلك الوهم الذى لم يعيش غير زمن
يسير ، وهو أننى كنت من بين الكتاب الذين يرحب شعب عظيم كالشعب
الألماني بالاستماع إليه . فى عام ١٩٢٩ ، أفرد لى « توماس مان » ، وأحد
المتحدثين الذين يثق بهم الشعب الألماني ، مكاناً فى تاريخ الفكر المعاصر
بعبارة جدّ ودّية ، عميقة المعنى . وبعد ذلك بقليل ، أقيم لابنتى « آنا » ، نيابة
عنى ، حفل رسمى فى « رات هاوس » « بفرانكفورتون مين » بمناسبة منحى جائزة
« جوته » لعام ١٩٣٠ . وكان ذلك ذروة حياتى كمواطن . ثم لم تلبث بلادنا أن
تقلصت حدودها ولم يعد يهم الأمة أن تعرف عنا شيئاً .

وهنا أستبجح لنفسى أن أختتم هذه المذكرات عن حياتى الخاصة . فلم يعد
لأحد أن يعرف أكثر من ذلك عن أمورى الشخصية — عن كفاحى وخيبتى
ونجاحى . وعلى كل حال فقد كنت فى بعض كتاباتى الأخرى (مثل تأويل
الأحلام وسيكولوجية الحياة اليومية) أكثر وضوحاً وصراحة مما ألفه الناس عادة
حين يصفون حياتهم لمعاصريهم أو لخلفهم . ولم يكن الإنصاف جزائى ، ولا
تسمح لى خبرتى أن أنصح أى فرد أن يحدو حذوى .

ويتعين على أن أضيف بضع كلمات عن تاريخ التحليل النفسى خلال
العقد الأخير . لم يعد ثمة شك أنه سوف يستمر ؛ فقد أثبت قدرته على البقاء
والنمو بوصفه فرعاً من فروع المعرفة وطريقة من طرق العلاج . وقد تزايدت زيادة
كبيرة عدد المعتنقين له (الذين ينتظمون الجمعية الدولية للتحليل النفسى) ففضلاً
عن الجماعات المحلية القديمة (فى فيينا ، وبرلين ، وبودابست ، ولندن ،
وهولندا ، وسويسرا ، وروسيا) ، أخذت جمعيات أخرى تتكوّن منذ ذلك الحين
فى باريس ، وكلكتا ، وتكونت جمعيتان فى اليابان ، وعدة جمعيات فى الولايات
المتحدة ، وتكوّنت أخيراً جمعية فى بيت المقدس وأخرى فى جنوب أفريقيا واثنان
فى سكنديناوة . وتنشئ هذه الجمعيات (أو هى بسبيل أن تنشئ) من أموالها

الخاصة بمعاهد تدريب ، يجرى فيها تعليم مزاولة التحليل النفسى طبقاً لبرنامج موحد ، وتشمل عيادات خارجية يقوم فيها كل من المحللين المدربين والطلاب بعلاج مجاني للمرضى ذوى الدخل المحدود ، وفي كل عامين يُعقد أعضاء الجمعية الدولية للتحليل النفسى مؤتمراً تُقرأ فيه البحوث العلمية وتُتخذ فيه القرارات التنظيمية . وقد انعقد الثالث عشر من هذه المؤتمرات (التى لم يعد فى وسعى أن أحضرها) فى « لوسرن » عام ١٩٣٤ . يشترك أعضاء الجمعية فى اهتمامات واحدة هى بمثابة البؤرة التى يشع منها عملهم فى اتجاهات مختلفة . فبعضهم يلجأ على زيادة معرفتنا بعلم النفس وضوحاً وعمقاً ، فى حين يختص غيرهم بتوثيق الصلة بالطب والطب العقلى . أما من الناحية العملية فقد اضطلع بعض المحللين بمهمة كسب اعتراف الجامعات بالتحليل النفسى وإدخاله ضمن المنهج الطبى ، فى حين قنع غيرهم بالبقاء بمعزل عن هذه المعاهد مؤمنين أن التحليل النفسى ليس أقل أهمية فى مجال التربية منه فى مجال الطب . ويحدث من حين إلى آخر أن يعتزلنا أحد المحللين إذ يصر على تأكيد إحدى مكتشفات التحليل النفسى أو نظراته على حساب كل ما عداها . ومع ذلك فإن الشعور فى مجموعه شعور الرضا — عن عمل جدّى رفيع مستواه .

رقم الإيداع	١٩٩٤ / ٥٨٣٩
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-4596-8

١ / ٩٤ / ٦٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

حياتي والتحليل النفسى

كان فرويد بفطرته شديد الاحتفال بمشاكل الإنسانية ، ثم
دار رائد التحليل النفسى وأستاذ المحللين بلا منازع . وهذا
الكتاب هو المدخل التاريخى للتحليل النفسى الذى أحدث ثورة
على المفاهيم التى اعتقها الأطباء دهرًا بصدد طائفة من الأمراض .



دارالمعارف